رواية الأفندي

محمد ناجي

الأفندى

رواية

محمد ناجى

كنت من أحباب الله مثل كل الأطفال، لكنني فقدت ذلك. أَعتقِدُ؛ الجميع أيضا، يحدث ذلك بالتدريج.

أظـــن أن مـــا يميّزني عن غيري هو أنني أعرف كيف يحدث ذلـــك، إنـــه يبدأ من اللحظة التي تكتشف فيها أن لك اسما يخصك، شيئا يميزك، يوما بعد يوم تزداد ابتعادا، ينقطع الخيط.

كانت أمي سعيدة بالاسم، تتنفسه في فرح وهي تُلقِّنني إياه:

ــ أنت .. "حبيب الله".

تتأني بعد "أنت" كأنها تنتظر وحيا، أتلقّي الوحي معها ثم أحبو فـــرحا، أمص إبهامي في الركن البعيد، وأتأمل نقطة الضوء، فقاعة الضوء، "حبيب الله".

لا أتذكر ذلك، وإنما أتخيله.

حبيب الله الأفندي.

اخـــتارت أمـــي الاسم، واختار الناس لي اللقب، أجمعوا عليه كأنهم يقرأون من كتاب واحد؛ "الأفندي".

محـــا اللقـــب المكتسب لقبا أصليا مشهورا؛ "الذّكر". لا يقلقني

الأمر، "الدّكر" أو "الأفندي" ما الفرق؟ .. أظنّ؛ لا فرق.

هوّن علي التخلي عن اللقب الأصلي أن عمّي شكك فيه؛ قال:

ـــ تـــبدو العائلة كأنها كبيرة جدا، ففي كل مكان نسمع لقب "الدّكر"، لكن الحقيقة أن هذا "الدّكر" من سلالة غير ذاك "الدّكر" ولا قرابة بينهما. كيف؟.. أتعرف كيف؟

طرح الفزورة ثم حلها:

ـــ "الدّكر" في الأصل اسم مقهي؛ "قهوة الدّكر"، كل من جلس علـــيه لخدمـــة الحريم أسماه الناس "الدّكر"؛ حمروش الدّكر، عياد الدّكـــر، ســـرماح الدّكر. كل واحد جاء من مكان غير المكان ومن أصل غير الأصل، لكن كله عند الناس "الدّكر".

ونبّهني بحسم:

ـ نحن أولاد حمروش، حمروش الدّكر، أشهر من جلس علي المقهـــي في زمانه، لكن أصابه خبال العشق في أواخر أيامه، ربك يحفظنا.

***

يحكـــي عمّي الكثير عن جدنا حمروش، يحكي دائما. التصقت خيالاته بذاكرته وأصبحت جزءا منها؛ يحكي كأنه يتذكر بجد.

أزوره أحـــيانا، أنـــساه سنوات، وأتذكره فجأة. ربما لا يزوره غيـــري. أتوقـــع كل مرة أن يخبرني أحد أنه مات، لكنني أجده في

مكانه دائما. أظن أنه سيظل هكذا يدير الكرة بأصابعه ويحكي.

يقيم عمِّي في أحد الدروب المتشابكة خلف سور المدينة القديمة، يسكن غرفة نائئة من منزل ذي طابقين. وضعُها شاذ؛ كأنها كانت محشورة في الطابق السفلي ولفظها خارجه، تلتصق به لكنها تبدو وكأنها ليست جزءا منه. لا يستطيع سكان الطابق العلوي أن يستفيدوا من سطحها حتي كشرفة، سطحها محدَّب كأنه سقف قبر. ربما كانت في زمن ما زاوية للصلاة.

يسكن الغرفة ولا أعرف لمن يدفع إيجارها. لا أعرف كيف يصرف أموره أصلا، ولا أسأله عن ذلك حتي لا أحمِّل نفسي مسئوليات لا أريدها. ألاحظ وأسكت.

كل زيارة أحمل معي طعاما. أغيب وأرجع، فأجد الطعام في مكانه، أرمي القديم وأضع الجديد.

يقول لي :

ــ لا تحمل همي.

ليس في الغرفة شئ تقريبا، فرش وغطاء، ونموذج دوّار للكرة الأرضية من ذلك النوع الذي يشرحون عليه دروس الجغرافيا في المدارس.

لا أعرف كيف وصلت الكرة إليه. ربما سرقها لص من مدرسة أو من أحد تجار الأدوات المستعملة، وأخفاها في هذا

المكان دون أن ينتبه لوجود عمّي. أخفاها ونسيها.

يفــرح عمّـــي بزياراتي النادرة، يفرح بطريقته الخاصة؛ يدير الكرة بأصابعه، ويحكي:

ـــ جــدك حمــروش كـــان سيد رجال المقهي، يلف الشال الحريـــري المطرّز بالورود علي رأسه، ويبرم شاربه. يجلس علي الأريكـــة الكبيرة قرب الزير والكوز وشجرة الخروع، وتكة لباسه تلمـــس الأرض. أول رجـــل تطلبه النساء للخدمة جدك حمروش، وأعلي سعر بين ذكور المقهي لجدك حمروش.

قـــبل أن يجلس للخدمة كان تحته أربع نساء، لكن نفسه زهدت حلالهـــا. طلّق الأربعة في يوم واحد ونذر نفسه للخدمة، جلس علي مقهـــي "الدّكـــر"، ولهذا سمّاه الناس "الدّكر". أما اسمه الحقيقي فهو حمروش.

يلقنني عمّي الاسم، ويصر علي أن أردده خلفه:

ـــ حمروش.

***

حمروش، الأفندي، الدّكر؛ لا يقلقني الأمر.

اختـــرت الأسهل. طبعت اسمي ومهنتي بالعربية والإنجليزية علي بطاقة التعريف: "حبيب الله الأفندي... مرشد سياحي".

أمـــارس المهـــنة بـــدون ترخيص. دراستي لم تؤهلني لذلك؛

بكالوريـــوس علـــوم. ثـــم أن مـــا أمارسه هو نوع مخصوص من الإرشـــاد الـــسياحي لا يحتاج إلي تصريح من أحد. اختار زبائني بنفسي، وأحدّد طبيعة عملي بمزاجي، مرشد خاص جداً.

مثلي يسميه الناس "خرتي"، والشائع أن الكلمة يونانية الأصل، لكـــن صديقي الشاعر العارف باللغة فايز ناصف أخبرني أن الكلمة اليونانية المقصودة وهي "خريتوس" جاءت أساسا من الكلمة العربية "خرّيت" أي الدليل الحاذق والمرشد الماهر، وقال لي:

ـــ كلنا بهذا المعني خرتية.

عموما هي كلمة كريهة، تنطوي علي استخفاف، ولا أحب أن يطلقهـــا أحـــد علي. من حسن حظي أن الناس اختاروا لي تسمية أفضل؛ "الأفندي".

***

هي كانت تسميني "وعْدي":

ـــ كيف حالك يا وعْدي؟ مشتاقة يا وعْدي..

أحيانا تغيب طويلا، ثم تظهر فجأة . أسمعها تنادي بين مقاهي الخان:

ـــ آه يا "وعْدي".

تقول إنه نداء يخصني، وتحلف:

ـــــ صـــدّقني؛ أنت وعْدي، هذا هو اسمك المكتوب عند ربنا،

اسمك الحقيقي.

تقترب فجأة، وتبتعد فجأة:

ــ ابعد عني؛ أخاف عليك مني.

أفهم هذا البرنامج جيدا؛ تقترب منك حتي تتلبسك وتسكن أنفاسك، ثم تغادرك فجأة، وتتركك بلا روح، لعبة الحياة والموت. فهمت البرنامج وحصنت نفسي ضده. أتركها أحيانا تلاعب نفسها.

***

نازك، هذا اسمها. تقرأ خطوط الكف والفنجان في مقاهي الخان وردهات فنادقه المتواضعة. تحدثني وتحدث الناس بأسلوب غريب وتعبيرات غامضة. تدعو لزبائنها:

ــ ربنا لا يحرمك من نارك.

أتعجّب من دعائها الناري فتشرح لي:

ــ أنا أدعو له بطول العمر.

طلبت منها مرة أن تقرأ كفي فأعرضت:

ــ لماذا كفك أو فنجانك؟ كل شئ مكتوب علي جبينك.

ــ وما المكتوب؟

ــ حزنك أطول من عمرك، قلبي عليك يا قلبي.

تحدثني عن الحزن، لا أحس بمعني الكلمة. أظن أن الحدود الفاصلة بين الحالات تلاشت عندي، الحزن والفرح، الرفض

والرضـــي، أتلقـــي كل الحالات بحياد. أتساءل أحيانا عما يمكن أن يحزنني، وأحاول أن أتخيل كيف يمكن أن يكون حزني.

لم أكن أهتم بفحص كلامها، لكنني دائما أري الحية في بياض عينيها الفسيح، تلك الرعشة الملساء التي تسري في دائرة البياض، وتشي بأفعي بيضاء عملاقة تتمطي تحت بشرتها النحاسية. أعترف أن فحيحها يرعبني أحيانا:

ـــ يا وعْدي.

***

أتذكر أن أبي لم يهتم باسمي، كان يتفادي أن يسميني:

ـــ تعال يا ولد.. اسمع يا ابني.. خذ يا حبيبي..

هكذا علي الدوام.

عمـــوما كان رجلا عاطفيا حتي في تعامله مع الناس، يناديهم بنفس الطريقة:

ـــ يا عمِّي .. يا سيدي.. يا خالتي.. يا بنتي..

حتـــي أمـــي كان يناديها "أم الولد". ينادي ويصفق بيديه ليلفت انتباهها، فهي دائما شاردة، مشغولة بأعمالها.

أنا كنت أناديها "ماما"، ويسميها الناس "ملاك". هي كانت تشبه شـــيئا مـــثل ذلك فعلا حين تقف أمام الشباك المستدير في غرفتنا، ونـــور الشباك يرسم حول وجهها هالة القديسين. يتألق المشهد كلما

زادت العتمة الداخلية وزاد وميض أضواء الشارع.

أنجذب إليها بجنون إذا صادفْتها علي هذا الحال، أعدو نحوها، فترفعني لأضع نفسي معها وسط الهالة:

ــ أنت.. حبيب الله.

***

ننام أنا وأمي في الغرفة الوحيدة علي سرير خشبي. وينام أبي وحده في صالة المدخل علي إحدي الأريكتين المتقابلتين.

لا أعــرف لمــاذا كانــت أمي تتفاداه، ترده عن باب غرفتنا بلطف:

ــ شغل البيت أتعبني، وأريد أن أنام.

الــشغل كثير فعلا؛ غسل وطبخ ومسح، لكن لا أظن أن تعبها كان وحده السبب.

أبــي لا يهدأ إلا بعد منتصف الليل بكثير، يظل متحركا قرب الــشباك الحديدي المستطيل في صدر الصالة. يفتح الستارة ويطفئ الــنور، يكتفــي بلمــسة شاعرية تبثها الأضواء المنبعثة من بيوت الجيران.

وهــو لا ينام إلا علي صوت الراديو، السكوت يقلقه. يصحو مــن نــومه ليبحث في مؤشر الراديو عن محطة بعيدة لايزال فيها صوت، أي صوت.

أمـــي عكسه، تحب الهدوء وتنام من أول غمضة، وإذا صحت لحاجة تنهض من فراشها كالمسحورة، تشرب أو تذهب إلي الحمام. أحيانا تتخبط في طست الغسيل أو وابور الجاز، لكنها لا تفيق أبدا، تظل في نومها، تتحرك به.

أحـــيانا توقظنـــي حـــركتها فأترقب عودتها، وحين تكون أمام الـــشباك المستدير بالضبط، أقفز نحوها لأضع نفسي معها في هالة القديسين.

***

تـــنام أمـــي مبكـــرة وتصحو مبكرة. أصحو معها تقريبا علي صوت أغنيات الصباح وهي تنساب من شبابيك الجيران:

ــ "يا صباح الخير ياللي معانا..".

أفـــيق وهي تطرْقِع أصابع يديها وقدميها وتعد قهوتها. أراقب طقوسها الصباحية بنصف عين، ثم أنهض لأتناول إفطاري وأستعد للذهاب إلي المدرسة.

تـــصحبني في طريقي إلي الباب الخارجي عبر صالة المدخل، وتناولنـــي مصروفي من جيب أبي. يكون هو ممدّدا علي الأريكة، والـــراديو يزنّ علي طاولة عالية. جنب الراديو دائما بقايا زجاجة كيـــنا وعلـــبة ســـجائر. تغلق أمي الستارة وتغطيه، ثم تمضي إلي الـــردهة الداخلية بين الغرفة والحمام لتبدأ أشغالها اليومية، أما هو

فلا يبدأ عمله في صالون الحلاقة إلا بعد الظهر.

أبـــي معـــروف بين الناس باسم "سي كلام"، دعابة انقلبت إلي جـــد. ظلت علي ألسنة الناس طويلا قبل أن يسجلها النقَّاش رسميا علي واجهة المحل: "صالون سي كلام".

كـــان عمل النقّاش تطوعيا، لم يتقاض جنيها عن جهده، وربما لهـــذا السبب أعطي نفسه الحق في تدوين الدُّعابة بهذا الشكل الفج علي واجهة المحل.

أتذكر أن ذلك حدث يوم طهور الحاج حسين جوهر. كان دهان واجهة المحل جزءا من طقوس الاحتفال ، وتطوع النقَّاش بذلك من باب المجاملة.

كـــان الحـــاج حـــسين يقترب من الثلاثين، أهملت زوجة أبيه اليونانـــية خـــتانه، وهو قرر إجراء العملية قبل زواجه الأول ، بل وأصـــر أن يكـــون الطقس احتفاليا. ربما انطوي ذلك علي اعتزاز خاص بأمه المسلمة التي ماتت وهي تلده.

لم يغضب أبي طويلا من النقَّاش، خففت دعابات الزبائن حدته، فضحك معهم في النهاية.

عمــوما كان أبي نموذجا حقيقيا لرجال المهنة بهندامه وبطئه وثرثــرته. يفخر بأنه تعلم الحرفة في "صالون الأكابر"، ويقول أنه كان أهم وأشهر صالون في البلد:

ـــــ جامعة في فنون الحلاقة، وأنا تعلمت بصبر حتي حصلت علي الدكتوراه.

رأيت المحل بعد ذلك بالصدفة علي حافة سوق العتبة؛ ضيق، لا يتــسع لأكثــر مــن كرسي وصبي يتحرك بمنشة الذباب حول الزبون، وأمامه دكة انتظار لا تتسع إلا لاثنين بالكاد.

***

يــستحق أبي لقبا مميَّزا، وكان "سي كلام" الأكثر بريقا، جرب الناس قبله ألقابا كثيرة ولم يصمد أي منها أمامه.

كــان أبــي جاهــزا دائما للكلام في أي موضوع حتي أسرار الــسياسة. يعــرف القلــيل ويُكْمــل بطريقته، ويراهن علي صحة إضافاته. يتحدث عن الحكام كأنهم أصحاب طفولته، يعرف ما يدور في رؤوسهم، ويدعو لهم بالنصر.

يــوم تأميم القناة وزّع الشربات، وفرقع بمبة الكلام في وجوه الزبائن:

ـــــ كــنت أعــرف ما يخطِّطون له، لكنني تجنبت الكلام في الموضوع حتي لا أفسد المفاجأة.

كنت آنذاك في الرابعة، حضرت المشهد ولم أقدر علي فهمه، لكننـــي أحـــس بالخجل حين أستعيده الآن، وأتذكر أبي وهو يتعثر بأكواب الشربات بين أقدام الزبائن الضاحكين ويحلف:

ــ والله عارف، وأخبركم منذ الآن أننا سنبني السد.

بعـــدها ظـــل الناس يذكِّرونه بالواقعة. حاولوا أن يسموه "سي عارف" وجربوا أيضا "سي مش عارف"، لكن "سي كلام" اكتسح كل الألقاب بعد ذلك، محا ما قبله من ذاكرة الناس، وتربع بألوان الزيت علي واجهة الدكان.

رغـــم كـــل شـــئ كان أبي ثرثارا خفيف الظل، يعامله الناس بسماحة ولطف. حتي سهراته الفاضحة قرب شباك الصالة الحديدي لـــم تـــزعج أحدا. كانت الجارات يترقبن ظهوره في مرح، يغلقن الشبابيك واحدة بعد الأخري، ويتبادلن التحذيرات. يفعلن ذلك بخفة دم ورقاعة بنات البلد:

* طفّي النور يا بنات، القمر ظهر في الشباك.

* كل واحدة تداري شمعتها.

* عين الحسود فيها عود.

حتي بالنسبة لرجال الجيران ظلت المسألة مجرد فكاهة، يقول له أحدهم:

ـــــ امرأتي قلقة عليك، لاحظت أنك لم تظهر في الشباك منذ

يومين، سلامتك.

ويمضي جار في تلميحاته إلي أبعد من ذلك:

ـــ لامــؤاخذة يا سي كلام، لا تزعل من إغلاق الشبابيك في وجهك، حريمنا تخاف علي رجالها من الحسد.

يــستدرجه بعض الخبثاء أحيانا إلي موضوعات حساسة، ولا يمسك هو عن الكلام. يتمهل قليلا ليتأكد من عدم وجودي بالدكان، وإذا تصادف وكنت موجودا ينزع منشة الذباب من يدي، ويصرفني إلي البيت بأي سبب يختلقه. أحيانا يحفزني بقرش:

ــ اشتر لنفسك حاجة حلوة.

غالــبا أضــع القــرش في جيبي واستدير بعد أربع أو خمس خطــوات، أكمن خلف باب المحل وأتسمّع ما يحكيه. لم يكن يتردد فــي الكلام في أي موضوع حتي أمي. تصوروا؛ حتي أمي، وأدق التفاصيل.

اعــتدْتُ ذلك التنصت، واعتاد أطفال غيري ذلك، هددوني أن يــشوا بي لأبي إن منعتهم، فرضخت للتهديد. اكتشفت بعد فترة أن وجــودهم يحميني، ففي المرات التي ضبطنا فيها أبي تاهت نظراته بيني وبينهم.

فــي النهاية صارت المسألة لعبة؛ يطاردنا أبي من حين لآخر، ويحزن جدا حين يراني بين الأطفال المهرولِين:

ــ حتي الولد!!

ظلــت الحكاية كلها في إطار الفكاهة، لم تُغضِب أحدا. كانت الجــارات يتندرن أمام أمي دون حرج ودون انتباه لوجودي، وهي تبتلع ابتسامة حزينة، أو تنهرهن ضاحكة:

ــ مم تتشاكيْن يا بنات؛ لا النظر ينقض الوضوء، ولا الكلام.

أمي نفسها لم تَسلم من تلصّصه، تسمع صرير الباب في ظلام الليل فتنتفض في السرير، وتقطع طريقه علي العتبة:

ــ ماذا تريد الآن ..؟! كنت تريد الولد، وأنا أنجبت لك الولد، أعطيتك كل ما كنت تريد، فدعني في حالي.

ســمعت الحوار المتكرر. لم أقصد أن أتلصّص، لكنني سمعت خلــسة وبعيون مغمضة متناومة. أتعجب للكلام، وأتعجب أكثر مما كان أبي يحكيه للزبائن؛ متي حدث كل ذلك بينهما؟!

عموما لا أظن أن أبي كان سعيدا بأمي، لكن ربما كان فخورا بهــا، بأناقــتها واتزانها. يبدو ذلك واضحا عندما نخرج جميعا في مشاوير مفاجئة، عزاء أو تهنئة أو طبيب.

تــتأنق أمــي عــادة عــندما نخرج من البيت، فستان وحقيبة وإيــشارب ونظــارة. تــزيد الأناقة حسب طبيعة وأهمية المشوار؛ الأفراح غير التعازي، والخروج للسوق غير الذهاب للطبيب.

دائمــا فــي ذهابهــا للطبيب لمسة إضافية، كان أهم شخصية

نعرفها.

***

عـــندما مرض أبي وسدّت حصوات الكلي مجري البول كانت أمـــي تـــصحبه إلـــي الطبيب ليجري له عمليات قسطرة. هو كان يحرص علي ذلك، ويقول لها:

ـــ الرجل عالجك زمان، ولك عنده كل ود واحترام.

كـــان الطبيب رجلا ودودا مفرطا في اللطف، يستقبلنا بترحاب كأنـــنا نجامله بالزيارة. يرفض أن يتقاضي أي فلوس عن خدماته، يـــرد أمـــي بحـــسم، ويظل ممسكا بيدها المطبقة حتي تلين قبضتها وتتخلي عن فكرة الدفع:

ـــ تحرجنا دائما بكرمك.

ـــــ لا أنسي أفضالكم علي أبدا، يكفيني شرف الزيارة يا ملاك هانم.

أمي "ملاك هانم"، وأبي يتصرف مع الطبيب بتواضع يخجلني، يتلاشـــي تقـــريبا. يطأطئ ويقلب وجهه بابتسامة خجلي متألمة بين المتحدثين عن يمينه ويساره، أمي والطبيب. وحين يحاول أن يشرح ما يعانيه يتلعثم طويلا قبل أن ينطلق لسانه:

ـــ يا سيّدي الدكتور.. يا سيدي الدكتور..

فـــي الـــنهاية كـــان أبي حلاقا، أقصي حدوده من العلم طهور

الصبيان، وكان هذا طبيبا يعرف كل شئ ، ربما كان أبي يحس أنه ليس أهلا لكل هذا الترحيب.

نعــود مــن تلــك المشاوير أكثر بهجة، أمي وقد أدت دورها باقــتدار، وأبـــي وقد تخلص من بوله المحبوس في المثانة. يرمق الناس أمي المتأنقة بإعجاب، ويحيون أبي بمحبة وأشفاق:

ــ سلامتك يا "سي كلام".

***

ماتت أمي فجأة.

أتذكر الآن أنها ظلت تعاني من شئ لا أدركه قبل موتها بأيام. تكتمت متاعبها بصمت حاسم، وماتت بنزيف حاد في الرحم.

***

دفــنّا مامـــا مـــلاك في مقابر الصدقة، لم يكن في مدفن عائلة "الدّكر" مكان للنساء، ربما لم يكن في الذرية نساء أصلا.

دفناها بين عظام نساء غريبات لا نعرفهن. كنت خجلا، وكان أبي حزينا ودامعا، ظل يلوم نفسه:

ــ أمك ماتت وهي زعلانة مني لأنني رهنتها بالولد. عشر ســنوات وهي تحاول، تعبَتْ وفعلت الكثير حتي أنجبتك. أنا فكرت في الزواج عليها من أجل ولد آخر، وهي لم تسامحني.

يحتضنني بحنان، ثم يطلب لها الرحمة:

ـــ .. واغفر لها، واستر خطاياها يا أرحم الراحمين.

***

ـــ آآمين.

مـــررنا بعمِّـــي في طريق عودتنا من المقابر، كانت أول مرة أراه. وجـــدناه نائمـــا في جلسته، يداه متكوِّرتان في حجره، ورأسه منكفـــئ علـــي صـــدره، وفوق شعر الرأس واللحية غبار وخيوط عناكب؛ واضح أنه نوم طويل.

نفض أبي التراب وناداه:

* السلام عليكم.

* السلام عليكم.

في كل مرة رفع رأسه وتثاءب، فتح عينيه وتقلبت نظراته في داخله، ثم أطبق فكه الأهتم وجفونه المجعدة، وطأطأ رأسه ونام.

مـــع النداء الثالث، أدار أبي الكرة البلاستيكية المتربة، فانبعث لدورانها صوت كأنه حفيف أجنحة.

* السلام عليكم.

هـــذه المرة؛ نظر عمِّي خارج نفسه، فانبسطت أساريره لمرأي الكرة الدوارة:

ـــ إنها تدور، مازالت تدور.

ـــ أم الولد ماتت اليوم، وهذا هو.

ـــ وهو الحيّ، وحده الحي.

حدثه أبي عن النزيف والموت المفاجئ، لكن عمِّي لم يهتم بما يقــول، ظل مشغولا بلعبته، يدير الكرة بأصابعه ويحكي عن جدنا حمروش الذي عشقته الجنية.

حكي عمِّي:

ـــــ يامـــا جـــري لجدنا حمروش، وياما حكي الناس عن سيد الـــسباع علـــي مقهـــي »الدّكر«. كان المقهي خلف أسواق للذهب والحريـــر والكتان. بعض النسوان يتسترن بالأسواق، ويتسللن إلي المقهي ليواعدن الرجال.

كل ذكر جالس علي أريكة وحده كأنه السبع في عرينه، وجدنا وسطهم في أعز مكان، جنب الزير والكوز وشجرة الخروع، أعلي مـــن الكـــل، وأغلي من الكل. كل ليلة يوفي وعده، وصاحبة الوعد تـــشكره وتزيد أجره، ثم تصرفه قبل أن يصيح ديك الفجر، وتسأله علي عتبة بيت الستر:

ـــ لو صادفْتني مرة أخري؛ هل تعرفُني من بين النسوان؟

يبتسم للكلام، ويمضي لحاله.

كـــل لـــيلة وجـــه جديد؛ رسم غير الرسم، واسم غير الاسم؛ سميحة.. مديحة.. صبيحة، لكنه يسمع نفس السؤال:

ـ لو صادفْتني ؛ هل تعرفني من بين النسوان؟

لـــيلة بعد ليلة لفَتَ السؤال انتباهه، صار يتمهل في رواحه بين البـــيوت والـــشجر، ويفكـــر فـــي السؤال الغريب، مع آذان الديكة وتسابيح الفجر.

ليل بعد ليل بعد ليل، وفي آخر الليالي جري له أمر غريب.

دخـــل علي سرير الوعد يزأر كما الأسد، برم شاربه ومد يده ليـــشق القميص ويكشف اللحم، كانت هذه طريقته المميزة. لكن في تلك الليلة ظلت يده ممدودة في الفراغ؛ المرأة قريبة من العين لكن بعيدة عن اليد، وكلما يقترب تبتعد.

ساعة، ساعتان، ثم كفّ عن المحاولة. حطَّ عمامته علي رأسه، ولبس لباسه ومداسه، وانصرف قبل منتصف الليل. وصاحبة الليلة علـــي ســـرير الوعد تتقلب وتضحك لنفسها، لا قامت تودعه علي الباب، ولا سألته السؤال الذي سمعه من كل واحدة قبلها.

ســـت ليال وهو يتعجب مما يجري له؛ يذهب للمواعيد ويرجع بناره، وما حدث آخر ليلة يتكرر كل ليلة، وصاحبة الوعد لا تقترب ولا تـــسأل، وهـــو يرجع للمقهي، يطأطئ رأسه أمام معلِّمه، ويرد الفلوس.

فـــي اللـــيل السابع غلبته الظنون. نسي لباسه ومداسه في بيت الـــوعد، وانـــصرف فـــزعا عريانا، وما علي جسمه غير العمامة

الملفوفة بالشال الحرير. دار في الشوارع يفكر، ولما تعب نام علي الأعتاب، وفي منامه رأي وانكشف الحجاب.

رأي صـــاحبة اللـــيلة واقفـــة علـــي رأسه، رمت فوقه لباسه ومداسه، وقالت له:

ــ كانت هذه آخر الليالي بيننا.

قال لها وهو نائم:

ــ ليلة ومرت.

قالت له وهي صاحية:

ــ كانت لياليا كثيرة، ليلة بعد ليلة وأنت ما عرفتني.

قال لها وهو نائم:

ــ لا أتذكر أنني رأيت هذا الوجه قبل هذه الليلة.

قالت له وهي صاحية:

ــ عيبك أنك تهتم بالتذكر، ولذلك لا تعرف.

وكشفت سرها:

ـــــ أنـــا سميحة ومديحة وصبيحة وكل امرأة واعدتها، جئتك بألف اسم ورسم، وأنت ما عرفتني.

ــ أنت غيرهن.

ــ أنا كلهن، ولوعرفت لفزت.

الآن فهم؛ الجنية.

قـــام من منامه يتطوح من الحيرة وسط صياح الديكة وتسابيح الفجر. ذهب لمعلمه فوجده نائما علي باب المقهي، هزّه في رقاده، واستأذنه في الكلام، وجلس علي أريكته ينتظره حتي قام. ولما قام؛ ركع علي رجليه وباح بما جري له.

ســـمع المعلـــم كلامـــه وقصة منامه، ثم نظر للفضاء المضئ وسأله:

ـــ الفجر بان؟

ـــ طلع وبان من زمان يا معلم.

سحبه المعلم من يده إلي خارج المكان، ثم ربّت كتفه وقال له:

ـــــ اســـمع يـــا ابني؛ طريقك الآن غير طريقنا، فاذهب لحال سبيلك، الله يفتح عليك.

***

كـــنت آنذاك في الإعدادية، عمري خمسة عشر عاما. لم أغفر لأبي صبره علي سماع مثل هذا الكلام يوم موت أمي، وخمنت أن عمِّي مخبول.

زاد خجلي.

***

طال حزن أبي.

كانت هناك أسباب أخري للحزن؛ الحرب.

أسقطت الهزيمة السريعة رهانات أبي، كان خجلا من زبائنه، يتعثر بالمشط والمقص في رؤوسهم، ويهرب من حسْم الكلام.

ــ ما آخر الأخبار ياسي كلام.

يُجادل ويُفْتي كعادته، لكنه لا يبدو واثقا، وآخر حديثه دائما:

ــ الله معنا.

ينشط حين يأتي جنود للحلاقة. يمحو شعرهم بماكينة "الزيرو"، ويسعد بفلوسهم القليلة، وبأحاديثهم عن الاستعدادات الحربية، ثم ينفض الفوطة ويودعهم داعيا:

ــ الله معنا.

كنا نقرأ هذه العبارة كثيرا علي مؤخرات عربات النقل التي ضمها الجيش للمجهود الحربي، نقرأها كأمر عسكري صارم لا يقبل الجدل، لكن أبي كان ينطقها همسا وهو يرفع رأسه إلي السماء، مجرد دعاء.

***

أنا لم أهتم كثيرا؛ كانت الحرب تدور في الصحراء بعيدا عنا، ومدينتنا تسهر لياليها كما تعودت دائما. أحزنني فقط أن اللون الأزرق طمس الهالة المضيئة في شباك غرفتي المستدير.

أضع نفسي أحيانا في الهالة الزرقاء، وأتأمل صورتي في مرآة التسريحة علي الجدار المقابل، وأتذوق اسمي علي مهل:

ـــ حبيب الله.. حبيب الله..

كـــنت مـــشغولا بنفـــسي، أتأمل ألوان الأحاسيس التي تتفجر داخلـــي، وأراقـــب شعر الرجولة النابت في وجهي، وأتحسس ثقل أعضائي النابضة.

أتذوق نفسي في الأحلام، وأقوم وفي فمي طعم حريق.

***

تحيرني الأحلام، حتي الآن تحيرني.

كيف أشرح الأمر؟

فـــي باطن كل حلم ذكريات ترافقه، لا تظهر في مشاهد الحلم، لكننـــي أحـــسها تتحرك في باطنه. ذكريات لأماكن وأحداث كأنني عـــشتها في عمق أبعد من الحلم، لكنها تبدو في قاعه حقيقة لا تقبل الجدل.

كانت ترقد في باطن أحلامي في تلك الفترة ذكريات حلمية لا أعـــرف مـــن أين تأتي؛ رائحة حريق، وعجوز وحيد أشيب يجلس علـــي كرســـي بالمقلـــوب، يسند ذقنه علي كتفيْ الكرسي، وعيناه شاخصتان بلا اتجاه ولا حركة.

لا أري الـــرجل في مشاهد أحلامي، وإنما أتذكر دائما أنه كان "هنا"، وأتفادي النظر إلي المكان.

أتذكر الآن أنه كان يشبهني، ربما بخضرة العينين.

***

كانـــت نازك تري في خضرة عيني ظلا أحمر. أنا لم ألاحظ ذلك في وقوفي الطويل أمام المرايا، ولم يلاحظه أحد غيرها، لكنها تتحدث عن ذلك دائما:

ـــــ ســـمعت الكثيـــر عن العيون الحمراء، لكن هذه أول مرة أراها.

أتحـــرش بهـــا وهي عائدة من الخان ببقايا عقود الزهور التي تبيعها علي الأرصفة، وهي لا تطاوعني، أقصد آنذاك طبعا.

كانت في مثل سني وربما أصغر، لكن فوران جسدها كان مـــدويا. لا أبالغ ان قلت إنني كنت أشم عصائرها الداخلية عن بعد، شـــهوة فـــواحة، مزيج من رائحة خميرة الخبز والقرنفل الطازج، عميقة وحارة.

أعترض طريقها فتنفلت من يدي وتهرب من نظراتي:

ـــ ابعد عينك عني، جواك نار جهنم.

تجري مني، لكنني أراها مع غيري، وأسمع من الناس أيضا. أواجهها بما أعرف فلا تنكر وإنما تبعد وترد:

ـــ لم يأخذ أحد مني، أكثر مما أخذت أنت.

أفكر وقتها أنها تسرف في نزواتها الصغيرة لدرجة أن الوجوه والأسماء تتشابه عليها، كنت أظن ذلك فأذكّرها بنفسي، وأسألها:

ـ أنا حبيب الله، ماذا أخذت منك؟!

ـ أخذت الكثير يا وعْدي، ويا ليتك ما أخذت.

ـ ماذا أخذت؟!

ـ بكره تعرف.

***

ملعون أبوها.

***

لا أعرف لها أبا، لكنني أعرف أمها؛ "أم لسان" الغجرية.

كانـــت ردّاحـــة مشهورة أيام كانت معارك الكلام مهنة للنساء الفقيـــرات. يؤجـــرها الناس لشتم خصومهم فتقطع طريق الأعداء بالـــردح علـــي مداخل الحارات. حين بارت المهنة اشتغلت بقراءة الطالع، ولما ضعفت صحتها جلست تتسول قرب باب الفتوح.

كانـــت تتـــسول بطريقتها، تردح وتشتم كل من لا يعطيها. لم يسلم منها خارج ولا داخل من البوابة، حتي العسكر تردح لهم:

ـ "عاملين رجّاله، وجيوبكم فاضية!".

أحيانا يختلط الأمر عليها، فتأخذ الصدقات وتردح أيضا:

* ربنا ما يقعدك علي باب جنته.

* ربنا ما يقويك علي مرة.

أحيانا يرق قلبها لعابر سبيل عجوز، فتسمح له بالجلوس جنبها

لتتسول به. تأخذ الصدقات لنفسها، وتناوله المحارة التي تحتفظ بها دائما، وتنصحه:

ــ وشوشها، وضعها علي أذنك، ربما تسمع كلمة تنفعك.

***

وشـــــشـــــش..

***

يزعجني وشيش الراديو في الليل.

يــتداخل الإرســال، وأبــي يحاول أن يبحث عن أم كلثوم في محطــة بعــيدة. يــضبط المؤشــر ثم يسهو عن الصوت فتتداخل المحطات مرة أخري، غناء، وأخبار، وتعليقات.

أنهــض من غرفتي لأضبط المحطة أو لأخفض الصوت، فأجــد أبــي علي أريكته المعتادة شاردا في أفكاره وسط الفوضي، يرشــف الكيــنا علي مهل، واللون الأزرق في شباك الصالة يصدُّ نظراتِه عن بيوت الجيران.

ألاحظ أنه تغير كثيرا، يبدو أكبر سنا وأثقل هما. يتركني أفعل مــا أشاء بالراديو ثم يطلب مني أن أجلس جنبه، ويشغلني بأخلاط أحاديث حول الموت والحرب.

يتلعثم وهو يتحدث عن أمي:

ـــــ أمــك عذبتني طويلا وأنا أيضا عذبتها. بخلت بطنها بك

عــشر سنوات. أنا كدت أجن، هددت بالطلاق. هي كانت مكسورة الجــناح، دارت علي العطارين والساحرات، ثم لجأت للطبيب. هي أيضا كانت تريد، المشكلة تخصّها.

يــوم ولدتك كدت أطير من الفرحة، أما هي فكانت حزينة، لا أدري لمــاذا. طلــبت من القابلة أن تناولني لفة المولود، ثم كشفت حمامــتك بــيدها وقالت لي: "هذا هو الولد الذي كنت تريد". بعدها خاصمتني، عاشت بخصامها خمسة عشر عاما، وماتت بنارها.

عذبتنــي وعذبــتها لكنها ماتت بقيمتها. قيمة المرأة أن تنجب ولدا، وهي أدت دورها.

لا ينتهي حديث أبي عن أمي عند هذا الحد، حكي لي أنه كان يتمني أن ينجب ولدا آخر، بل وفكر في الزواج من غيرها من أجل الولد. هي لم تكترث بذلك، بل وكانت مستعدة أن تخطب له بنفسها.

قال أبي:

ـــ أمك وافقت، لكنها نبهتني أن العمر يجري وربما أكون قد تأخــرت، ونــصحتني بإجراء بعض التحاليل حتي لا أنفق فلوسي علــي الفاضــي في الزواج الثاني. حلّلت، كانت تحاليل الرجال قد أصبحت شائعة ولا تُخْجِل أحدا، لكن الطبيب قال لي: "يكفيك الولد الأول".

فهمت؛ ضاعت الفرصة، ولم تعد في ظهري بذرة حية.

***

تـــشغلني أحاديث أبي الليلية عن المذاكرة، بل وتشتت أفكاري. تقلقني.

واضح أن أبي فقد البهجة، حتي حرب العبور لم تجدد حماسه للكلام في السياسة. كان يفقد حيويته وينزوي عاما بعد عام حتي في عملـــه. قلت فترات وجوده في صالون الحلاقة، ربما كانت قصّات الـــشعر الجديدة سببا في انصراف الزبائن عنه. كان عصر الانفتاح يضع لمساته علي كل الرؤوس.

كـــنت آنـــذاك في كلية العلوم، وهو كان عاتبا علي كل شئ؛ الأســـعار، والأخـــبار والغـــناء وموديلات شعور الخنافس. ينتظر اســـتراحاتي مـــن المذاكرة، ويستدرجني إلي أريكته جنب الراديو ليثرثر معي، ويشكو من أغاني الزمن الجديد:

ـــــ زمـــان كان كل صوت يطربني، أم كلثوم وعبد الوهاب وأســـمهان وليلي مراد، حتي صوت عبد الناصر يطربني. العصر كله كان عصر طرب؛ طرب سياسي، كله من القلب.

صـــوت الـــسادات لا يطربني،عال كأنه ينادي علي بضاعة. صـــحيح هـــو صـــريح، يضع يده علي الجرح ويوجعك، لكنه لا يـــريحك. كلامـــه مـــن دماغـــه لا مـــن قلبه، فيه حسابات تعرفها وحسابات أخري لا تعرفها؛ يقلقك.

غـــناء هـــذه الأيـــام مثل سياستها يتوّهك، حتي كلام الجرائد والإذاعات توهان؛ "السح الدح امبو".

ينحنـــي أبـــي جـــنب الراديو، ويهرب بالمؤشر إلي محطات الأغانـــي باحـــثا عن لحن قديم. يسعد إذا صادفه صوت أم كلثوم؛ يسدل جفونه ويتراجع بخفة عائدا إلي مكانه المعتاد علي الأريكة.

الراديو قديم والمحطة بعيدة، والصوت يعلو ويهبط كأنه يسري علـــي موج، وأبي يتنفس النغم بعمق، ويهتز من الانفعال في ختام المقطع:

ـــ "ياريتها.. ياريتها دامت أيام".

اعتبرني أبي سنده، وأنا لم أخذله.

كـــان يزداد انزواء وفقرا. يشيح بوجهه عن كل وعود الرخاء والانفـــتاح، ويحصي الجنيهات القليلة في جيبه، ويتحسر علي زمن كـــان فـــيه الجنـــيه الواحد يطعم ويكسو ويعالج. يقارن بين أسعار البيض واللحم والخبز في الماضي والحاضر، ويلعن الأيام:

ــ الآن؛ الجنيه لا يشتري بطيخة.

أغلـــب وجوده في صالون الحلاقة جنب الراديو، ينش الذباب وينتظـــر زبائنه النادرين. أغلبهم الآن عجائز وفقراء مثله، يرضي منهم بالأجر القليل، ويرتاح لكلامهم:

ــ الإنسان أرخص شئ، لا سعر له، الدجاجة أغلي منه.

يعـــود للبـــيت مبكـــرا، يستحم، ويدهن جسمه بمرهم "فيكس" لـــيخفف آلام المفاصـــل. يجلس جنب الراديو أيضا، لكن بعيدا عن الشباك.

كـــان مفاوضـــات السلام قد مسحت زرقة الحرب عن زجاج الـــنوافذ، لكـــن أبـــي لم يعد يطيق النظر إلي الخارج. يغلق ستارة

الـــشباك، ويواصـــل شكاواه وهو يدخن ويلعق حلق زجاجة الكينا الفارغة منذ يومين:

ـــــ كل شئ تغير في البلد حتي وجوه الجيران؛ لا ابتسامة ولا كلمة سلام، كأن الحرب انتهت هناك وبدأت هنا.

أعاملـــه بلطف، لا أستطيع إلا أن أفعل ذلك. أتودّد إليه وأناديه أحيانا: "عم بابا".

***

لـــم يفهـــم أبـــي التغيرات التي تجري، لكنني فهمت ولاحظت الفرص الطيبة المتاحة للكسب بل وللثراء.

لـــو أردت أن أقـــول الحقيقة كاملة؛ فلابد أن أعترف أن نازك هـــي التـــي فتحت عيني وقادت خطواتي الأولي علي الطريق. نعم نازك؛ تلك البنت التافهة التي تبيع الزهور في الخان.

حتـــي ذلـــك الـــوقت لم أكن قد اقتربت منها ولا لمستها. هي هربت من تحرّشاتي زمان، وأنا انصرفت عنها، لم تعد تناسبني.

فـــتحت دراســـتي الجامعـــية أمامي عوالم جديدة أكثر بريقا، انـــشغلت بها، لكن لا أدّعي أنني اندمجت فيها. كان لفقر أبي تأثير كبيـــر علـــي مظهـــري ومصروفي، وكنت أنجح بصعوبة؛ السنة الدراسية في سنتين.

مـــرت فترة طويلة جدا لم أصادف فيها نازك، سنتان.. ثلاثة،

ربمـــا أكثر. كنت قد نسيتها تقريبا، ثم ذات مساء وجدتها فجأة في حضني.

صـــادفتها تجـــري خارجة من الخان، وأنا ذاهب إليه لأشتري لأبي بعض لوازم الحلاقة. ألقت نفسها في حضني، ثم أدارتني إلي الخلف في اتجاه جرْيها، وسحبتني من يدي:

ـــ خذ هذا الكيس واجر معي بسرعة.

لم أفهم لكنني جريت، شلّت صدمة أنوثتها الطاغية تفكيري.

ـــ ما هذا؟

ـــ اجر بسرعة، وسأشرح لك كل شئ فيما بعد.

جرينا، كانت أسرع مني رغم ثقل أردافها. جلسنا نلهث خلف السور العتيق قرب باب الفتوح.

رغم حرج الموقف غطت عيني بيدها، وقالت:

ـــ حوّل عينك عني، في خضرتها نار تحرق قلبي.

أبعدت يدها وسألتها بحسم:

ـــ اخبريني أولا ما هذا؟

ـــ دولارات يا وعْدي، هل رأيتها من قبل.

قـــرَّبتْ الـــورق الأخـــضر مـــن أنفي لأشمه، ثم بسطَتْه علي راحتها:

ـــــ دولارات جديدة وحيّة، رائحتها ترد الروح، وحدّها يذبح

مثل السكين.

كانـــت الحكاية باختصار أنها تشتغل بتغيير الدولارات، تلعب دور الوســيط بين السياح وتجار العملة المستترين في الخان. سعر الــسوق الــسوداء أعلـــي من البنوك، ومكسبها في الدولار الواحد نصف قرش. أحيانا تضايقها شرطة السياحة، فتجري منهم:

ــ لو أمسكوني يسجنوني ويصادرون الدولارات، بهدلة.

ــ الأغلب أنك أخذت الدولارات وهربت.

ـــــ كــيف أهــرب، لــو عملتها يقطعون رجلي عن الخان.

أصحاب المقاهي التي أصطاد منها السياح يعرفونني ولهم نسبة من عمولتي، لو خنتهم يذبحونني، ثم أنني لست لصة يا وعْدي.

وعادت تلاعبني بالورق الأخضر.

ـــــ أكــسبُ في تغيير الألف خمسة جنيهات، مجرد خطوتين وخمس دقائق بخمسة جنيهات، وربما أكثر.

وفاجأتني:

ــ تشتغل معي، والمكسب بالنص؟

قبِلْت.

***

قالت إنها ستشرح لي طريقة العمل بالضبط فيما بعد، أما الآن فلابد أن نتحرك بسرعة لنخرج من المأزق.

هي وضعتْ الخطّة وأنا نفّذت.

أعطتنـــي اسم تاجر العملة وكان معروفا، فذهبت إليه وغيرت الدولارات بعد أن أعطيته كلمة السر: "نازك سافرت".

أدَّيــتُ مهمتي بإتقان وانتظرتها علي المقهي الذي وصفته لي، وهي جاءت بعد قليل بمظهر مختلف تماما.

تــركتها بعباءة بدوية ومنديل رأس مشغول بالترتر، ورجعت لى ببنطلون جينز ونظارة شمسية وحقيبة. أعطيتها الفلوس فسلمتها للسائح المنتظر بعد أن خصمت العمولة.

***

في طريق عودتنا سألتني:

ــ لازلت طالبا؟

ــ في الجامعة، كلية العلوم، أدرس الفيزياء والفلك.

ــ ربنا ينجحك، كبرت يا وعْدي.

نعــم أنا كبرت، ولكن هي فارت بشكل جهنمي. لا أستطيع أن أقــول إنها جميلة ببدانتها وأردافها الثقيلة وبشرتها النحاسية، لكنها فوران من أنوثة طاغية تلفحني روائحها.

ــ وأنت ماذا تعملين؟

ـــ كمــا رأيت أشتغل بالدولارات، وأقرأ الكف والفنجان في مقاهي الخان.

ـ كنت تبيعين الزهور.

ـــ صارت بضاعة كاسدة، الناس الآن لا تهتم بزهور الحياة التـــي تمـــسكها بيدها، تنشغل أكثر بالغيب الذي لا تعلمه، تريد أن تطمـــئن علـــي مستقبلها، حال الدنيا مقلق، والناس لا يعرفون ماذا يريدون منها.

ـ وأنت؛ ماذا تريدين؟

ـ لو أخبرْتك؛ هل تسخر مني؟

ـ لن أسخر.

ـ أريد حصانا بجناحين، أركبه وأطير في السماء.

ـ وتهربين بالدولارات؟

ـــ مـــاذا أفعل بها إن كانت فوقي فاكهة السماء، وتحتي ماء السحاب، تماما كما كانت "ستِّنا".

ـ وهل هناك حصان بجناحين؟

ـــ ربما كان زمان. كل ما يخطر علي خيالنا لابد أن يكون، هل هناك شئ أكبر من قدرته؛ سبحانه.

ونصحتني:

ـ لا تكن كافرا مثله.

لم أفهم كلامها، فسألتها:

ـ من الكافر؟

ـ هو" الواطي"؛ كان سلطانا علي كل بر وبحر، لكنه بلا قلب ولا اسم. أمي تحدثني عنه دائما، وكانت تلعنه كل صباح وكل ليل أيـــام كانـــت تعمل "ردّاحة". كانت تشتمه هو ولا أحد غيره، تأخذ الأجـــر من الناس علي قصد يخصهم، وتشتغل بقصدها هي، تشتم "الواطي".

حكـــت قليلا. كانت تروي تخاريف أمها بثقة وكأنها تنقل عن أفلاطون:

ـــــ نحـــن بنات السماء، ولو ركبت معي الحصان ذا الجناح تسعد.

ـ وأين أمك الآن؟

ـــــ "أم لـــسان" لـــم تعد تخرج من البيت. تنام وتقوم توشوش محارة السماء وتسمع منها، تسمع وتحكي لي.

ضجرْتُ، فغيرت اتجاه الكلام:

ـ لماذا تلبسين نظارة شمسية في الليل؟

ـــــ تغيير منظر، وربما لتحجب عن نظري ظلال جنهم التي تشع من خضرة عيونك.

وسحبتني بالكلام:

ـ لبست "سبور" ربما يعجبك شكلي.

ـــــ تعجبينـــي يـــا بنت من أول يوم رأيتك فيه، لكنك تبعدين

عني، ولا أعرف لماذا.

ـــــ يـــا كذاب، كيف أعجبك وأنت لا تراني؟.. لم ترني حتي الآن وإنما تري نفسك.

لـــم أســـتطع أن أخمـــن في أي شئ تفكر، ولم أكن راغبا في المضي بالحديث في هذا الاتجاه، لكل كلام وقته، ثم أنني لا أريد أن أفسد الفرصة المتاحة.

***

سألتها عن الشغل، فوعدتني:

ـــ اتفقنا، نعمل معا، وسأعلمك كل شئ.

وسألتني:

ـــ أعرف مكان صالون أبيك، لكن أين تسكن ؟

ـــــ درب الصايم، أول باب الشعرية، جنب مدرسة خليل أغا. وأنت؟

ـــ ليس بعيدا عنك، درب الصافي، داخل الحسينية.

***

شـــبكت إصبعي بإصبعها ونحن نسير جنبا إلي جنب عبر باب الفتوح، وهي علقت علي الموقف كالمسحورة:

ـــــ مـــا أغرب المكتوب، ضعت مني ثم رجعت في لحظة يا وعْدي، سبحانه.

أنا أيضا كنت أفكر في المصادفة الغريبة، التي يمكن أن تجعل لمثل هذه البنت التافهة تأثيرا علي حياتي.

أعتــرف أنني كنت خجلا منها جداً، لكنني كنت راغبا بشدة، راغبا في كل شئ، كل شئ.

***

رجعــت لأبـــي ببطــيخة وزجاجة كينا. ظن في البداية أنني اشتريتها بفلوس لوازم الحلاقة، لكنه اطمأن حين أعطيته المقصات والأمشاط والأمواس:

ـــــ اشرب وانبسط يا عم بابا، وكُلْ البطيخ الذي تحبه، وفرت الفلوس من مصروفي.

تكرر الأمر ليلة بعد ليلة فبدأ يقلق:

ـــ من أين تأتي بهذه الأشياء؟

ـــ أشتريها بفلوسي.

ـــ ومن أين تأتي بفلوسك هذه.

ـــ كسبتها في الحرب.

ـــ أي حرب؟

ـــ الحرب التي تقول أنت إنها بدأت هنا.

***

ـــ يا ولد لا تحيرني، فالناس لا تجد الفلوس هكذا علي قارعة

الطريق.

قلــت له إن البلد "سداح مداح"، والفلوس علي قارعة الطريق فعلا، ومن يمد يده يخطف ما يشاء:

ــ هي حرب الفلوس يا عم بابا، ويجب أن ندخل هذه الحرب بالذات وإلا متنا من الجوع.

وخبطت صدري براحتي:

ــ أنا لها، حبيب الله الدّكر.

***

ظل أبي قلقا ليلة بعد ليلة:

ــ عندما تكون الفلوس سهلة إلي هذا الحد فلابد أن أحدا يرتب ذلك لأمر يخصه.

ـــ لا أحد يرتب أي شئ، ولا أحد يجبرك علي أن تأخذ أو لا تأخذ، الأمور أسهل مما تظن.

ــ وما أدراك؟!

ــ لا أري أحدا يرتب أي شئ.

ــ وهل يري الإنسان الشيطان؟

ــ أي شيطان يا عم بابا؟

ـــ الشيطان، الذي حدثنا عنه ربنا. ربما يسهلها لأمر يدبّره، وقد يكون الثمن فادحا.

ـــــ يـــا عم بابا؛ البلد كلها تمد يدها وتأخذ، وأنت تحدثني عن الشيطان!

ـــ البلد كلها، كلها ؟!.. أخشي أن يكون الثمن فادحا.

***

لـــيلة بعـــد لـــيلة نأكـــل ونشرب ونتكلم. شرحت له موضوع الـــدولارات لكـــنه لـــم يكف عن قلقه. أنا حصرت الأمر في إطار الدعابة، كنت أقول له:

ـــ أنكل شيطان يبلغك تحياته، اشرب وكل يا عم بابا.

وأناوله مصروفه:

ـــ هذا من عمنا الشيطان.

أغلـــق أبـــي صـــالون الحلاقـــة وقعد في البيت. أكل وشرب وارتاح، لكن في النهاية وقفت اللقمة السهلة في زوره؛ مات.

وجدْتُه ذات ليل ميتا وهو جالس علي الأريكة، وقد طأطأ رأسه للـــراديو، وصوت عدوية يتقافز من بين أصوات المحطات البعيدة المتشابكة، ويدق علي دماغه:

ـــ "السّح الدّح امبو".

لجـــأت إلي الحاج حسين جوهر لترتيب إجراءات الدفن. كنت مـــرتبكا جـــدا ولا علم لي بأي شئ، وهو ينهض لمثل هذه المهام بحماس، ويفخر دائما بأنه يعرف موظفين في كل الهيئات والمصالح الحكومية:

ـــــ الصغير قبل الكبير. أحيانا يكون الصغير أهم، معه الختم مثلا، يستطيع أن يعقّد الأمور.

قـــال وهـــو يحلِّق صاعدا سلم مكتب الصحة كأنه يصعد إلي السماء:

ـــــ تـــري هـــؤلاء الموظفين في الحياة فلا تهتم بهم؛ بزّاتهم كالحـــة، وجـــيوبهم فارغة، وضحكتهم صعبة وبعيدة. ينامون الليل بطـــوله وينهـــضون مع طلوع الشمس لتصريف الأعمال الموكلين بها، والرجل الذي لا يعرف السهر هو دائما قليل المزاج.

حـــين نزورهم في مكاتبهم نكتشف أسرارهم. لهم أسرار خفية مثل الملائكة؛ كلمتهم نافذة ومعهم الأختام والأقلام وبيدهم المفاتيح. مـــن يحظي برضاهم يكسب، وبدون مساعدتهم لا تستطيع حتي أن

تثبت إن كنت حيا أم ميتا.

أنا أعرف قيمتهم الحقيقية، أستقبلهم بترحاب دائما: "يا بيه ويا باشـــا". أجاملهم وأبيع لهم بأقل الأسعار، وأحيانا بأرخص من سعر البـــضاعة، أخـــسر فلوســـي لكنني أكسب ودهم، وعندما أقصدهم يسهِّلون كل أمر عسير.

***

دفـــنَّا أبي في مدفن العائلة. كانت أول مرة أراه؛ علي واجهته قطعة من رخام أبيض مكتوب عليها بخط النسخ: "مدفن آل الدّكر.. بـــناه ودُفِـــن فيه زغلول الدّكر"، وعلي نفس الرخام أسماء ستة من سلالة "الدّكر" رقدوا في المدفن، وليس من بينهم حمروش.

كـــان الحـــاج حسين متأثرا بموت أبي، تمهل بعد الدفن رغم زعابيب أمشير ليعدد مناقبه للناس. قال لهم إنه كان طيب القلب لم يُـــؤْذ أحـــدا، وعاش ومات وربي ولده بعرق جبينه، وكانت اللقمة الحرام تقف في حلقه.

وأضاف:

ــ أما كلامه فلم يكن يصدرعن قلة فهم، وإنما عن مودة وحب للـــناس، وأحـــيانا تصادف في أقواله دررا لامعة، إشارات وخطف كـــلام مـــثل الأولـــياء. الحقيقة أنه لم يكن "سي كلام" وإنما "سيدي كلام".

بعد أسبوع أضاف الحاج حسين لواجهة المدفن رخامة سوداء جهـزها علـي نفقته الخاصة، ومكتوب عليها: "رقد في هذا المدفن يوم الجمعة الثاني من صفرسنة ١٣٩٥ هجرية المعلم حسن شحاتة الذّكر المشهور بلقب "سيدي كلام".

***

كـان الحـاج حـسين جوهر رجلا ودودا مجاملا. في تقاسيم وجهـه الأبيض المستدير أقواس رشيقة تحتضن ملامحه، وتحتضن أيـضا وجْـه محدثه بلطف، وتجعله يبدو مبتسما حتي في حالات الحزن.

احتـضنتني أقواس وجهه بعد خروجنا من المقابر، وأصر علي أن أصحبه إلي بيته:

ـ تغسل وجهك من تعب النهار، ونأكل لقمة سويا.

ركـبت السيارة جنبه وهو ساق علي مهل، وظل مشغولا بي طول الطريق. سألني عن ظروفي فأخبرته أنني مازلت طالبا أدرس الفيزياء والفلك في كلية العلوم.

ـ لكنك تبدو أكبر سنا.

ـ رسبت أكثر من مرة؛ الدراسة صعبة وظروفي أصعب.

ـ وما فائدة هذه الدراسة، ولأي عمل تؤهلك؟

ـ التدريس، ولو توفرت لي واسطة أعمل في شركة.

خاب أمله:

ـــــ ولماذا لم تدخل أي كلية أخري يمكن أن تجعل منك مديرا مهما في الحكومة.

ـــ أظن أن عصر الموظفين انتهي.

ـــــ أبـــدا، لن ينتهوا أبدا، سنجدهم دائما في كل مكان وأوان جالـــسين علـــي مكاتبهم وأمامهم الأختام والأقلام، حتي السماء لا تستغني عن الملائكة يا حبيب أفندي .

بَعُـــدَ الحاج حسين بالكلام حتي شارف تخوم السياسة، ثم رجع إلي الموضوع وسألني:

ـــ والآن، كيف ستصرِّف أمورك بعد موت أبيك؟

ـــ أبي توقف عن العمل قبل موته بفترة.

ـــ وطبعا نفدت مدخراته.

ـــــ لـــم تكـــن لديـــه مدخـــرات ننفقها، أنا كنت أتولي تدبير المصروفات.

حدثـــته عن اشتغالي بالدولارات، وقلت إنني سأستمر في ذلك حتي تخرّجي.

كان يعرف كل تجار العملة الذين أتعامل معهم، أنا ذكرتُهم له اسما اسما، وهو نبهني:

ـــ اللصوص؛ يعطونك نصف قرش فقط، العمولة الآن لا تقل

عن قرش.

وحذرني:

ـــ الـــدولار لعـــبة خطـــرة، قـــد تنتهـــي بالسجن، ثم إياك والمخدرات يا حبيب أفندي.

ضيّق الحبل ، لكنه وعدني خيرا:

ـــ عموما لا تقلق، الحل عندي، نأكل ونتكلم.

***

يـــسكن الحـــاج حسين في باب الخلق. ورث البيت عن أبيه، وأصلح مظهره بواجهة من الرخام يعلوها طلاء حديث. يكاد البيت يبدو عصريا، لكن زخارفه العتيقة ظلت تشي بقدمه.

أمـــام البيت سبيل ماء مثلج، وفي الداخل ثلاثة أدوار مفتوحة علـــي بعـــضها بـــسلالم داخلية. تقيم في الطابق الأول أرملة أبيه اليونانية، عرَّفها بي، وذكّرها بيوم طهوره:

ـــ هـــذا حبـــيب أفندي ابن المرحوم "سيدي كلام". كان يوم طهـــوري طفلا لكنه تصرَّف كرجل؛ تقدَّم الزفة جنب أبيه، ودخل معه الغرفة. كان يناوله القطن والأمواس بثبات، لم يرتعش له جفن لمرأي الدم رغم صغر سنه.

تقـــيم زوجـــتاه في الطابقين الثاني والثالث؛ الجديدة في الثاني والقديمة فوقها:

ـ هي الأساس، ولابد أن تكون فوق الكل.

أخبرنـــي بذلك دون أن نصعد، وقال لي أن الأكل سيكون في الطابق الأول مع ماريا:

ـ الرائحة الزكية الباقية من ذكري المرحوم أبي.

ثم بسط يديه:

ـــ الفاتحة لأبي جوهر ولسيدي كلام، ولكل أموات المسلمين. آمين.

قـــرأت ماريـــا الفاتحة معنا، ثم رسمت علامة الصليب حول وجهها وقالت:

ـ ولكل الأموات الطيبين، مسلمين وغير مسلمين، وبابا فيليب وماما إيرين.

ـ آمين

***

أكلنا وتكلمنا، وطرح الحاج حسين الحل:

ـ تشتغل معنا في الخان، مع السياح يا حبيب أفندي

ـ لكنني لا أعرف شيئا عن الآثار؟

ـــ السياحة الآن ليست سياحة آثار، والسائح لا يهمه التاريخ ولا مـــن صـــنعوه. السياحة أسواق؛ بيع وشراء، وشقق مفروشة، وتأجيـــر سيارات، وأماكن للسهر. أغلب السياح الآن عرب يبحثون

عــن ســاعة حــظ. حتــي الأجانب الذين نراهم في الخان جاءوا ليتفــرجوا علينا، علي الناس وليس علي البلد، أو ليبحثوا عن متع سهلة ورخيصة.

ونصحني:

ــ انس سائح زمان؛ لا البلد هي البلد، ولا السائح هو السائح.

وشرح فكرة الشغل بدقة أكبر:

ـــ الــسائح الآن يحتاج خدمات، وأنت ستكون دليله، سيارة، شــقة، شراء أنتيكات. تأخذ عمولتك من السائح ومن المصري. هذا الــشغل أبــوابه كثيرة ورزقه واسع، وهو أقرب للدولارات أيضا، وأكثر أمانا.

حسم الموضوع، وحدد الزمان والمكان:

ـــ نبدأ بعد الامتحانات؛ تأتي إلي دكاني، نشرب الشاي معا، وتصطاد زبونك. إجازة الصيف الدراسية هي أيضا موسم السياحة.

***

لم أنتظر إجازة الصيف، بدأت بعد أيام.

كانـــت نازك تراقب تحركاتي في الخان بريبة، فهمت ذلك من تلميحاتها المتكررة:

* مـــا الحكايـــة؛ كـــل الناس في الخان أصبحوا يعرفون "سي الأفندي".

* فلوســـك كثـــرت؛ لبست سلسلة ذهبية وقميص حسين فهمي وعملت روميو.

* أمـــي قالـــت لي: "لو مددت يدك للجوعان يعضها"، وأنا لم أسمع نصيحتها.

* فـــزورة تحيرني: واحد أعطيته رغيفي يقسمه بيننا نصفين، أخذه وهرب؛ ماذا يستحق مني؟

في النهاية واجهتني.

أنكرْتُ، لكنها أكدت لي أن التجار أخبروها بأشياء كثيرة:

ـــــ أشـــياء لا معنـــي لها إلا أنك تشتغل وحدك، ومن خلف ظهري.

لم يكن يهمني أمرها، فهي بالنسبة لي ليست أكثر من رغبة لم

تتحقق، لكنها ليست رغبة ملحة. نهرتها لتكف عن صياحها، وقلت لها إن مظهرها يخجلني وطريقتها في الكلام تخجلني، وإنني لم أعد أطيق أن أري وجهها، وإنها يجب أن تدرك من الآن من أنا ومن هي.

سألتها بازدراء:

ــ أنتِ؛ من أنتِ؟!

ــ قد لا تعرف من أنا، لكنني أعرف من أنت.

وشتمتني:

ــ أنت "الواطي" مثله.

وتوعَّدتني:

ــ سأفعل بك مافعلت "ستِّنا" بذلك "الكافر".

تلاعبتُ بالفلوس في جيبي لأغيظها، فأخرجت هي خمسة جنيهات من جيبها وأحرقَتهْا أمام طرف أنفي حتي صارت رمادا:

ــ ملعون أبو الفلوس.

وتحدتني:

ــ تحارقُني؟

أحرقَتْ خمسة أخري، وطيرت الرماد بأنفاسها علي وجهي، وواصلت التحدي:

ــ لو أنت رجل؛ احرق جنيها.

لا أعــرف شيئا عن "الواطي" ولا "الكافر" ولا "ستِّنا"، ولا عن كل تخاريف أمها. هربت بفلوسي وكنت مصمما علي ألا أراها مرة أخري.

تكــرر خــصامنا ورجوعنا، هي التي كانت ترجع إلي دائما، أجــدها تنتظرني علي مخارج الخان أو تحت بوابة الفتوح، تمشي في ظلي وهي تتوسل لي لأصالحها:

ــ يا وعْدي.. يا وعْدي..

انتهزت الفرصة وضغطت عليها حتي أجرّها لما أريد، وأحقق رغبتي المؤجلة.

***

حصل

***

تــم أول لقــاء بيننا تحت سرير حديدي تتقلب عليه أم لسان. كانــت العجــوز لاهــية عــن الدنيا بمحارتها وتخاريفها، لم تنتبه لحــركاتنا ولا لأصــواتنا في القاع. لم تنتبه لوجودنا أصلا، ربما كانــت تظــن أن ما تسمعه هو وشيش المحارة. كانت تقلبها علي أذنيها وتجاوبها:

ــ احرقيه بنارك.

وتردح:

ـــــ "الواطـــي"، مـــن لا اسم له؛ قطفت له "ستِّنا" الورد، وهو وجعها بشوكه.

***

كانـــت المرة الأولي سريعة وبدون تركيز، بسبب هلوسات "أم لـــسان"، وتخبطنا المتكرر في سقف السرير وأرجله الحديدية. بعد هذه المرة كنت أصر علي أن نلتقي في بيتي.

***

لا أعتبر وصولي لنازك إنجازا.

أعـــرف أنه كان أمرا سهلا لغيري؛ تحت أي سلالم، أو تحت ســـرير "أم لـــسان"، أو في أي مكان. لا أعرف لماذا خصتني بتلك المراوغة الطويلة.

واجهـــتها بوقائع محددة لاحظتها بنفسي في الخان؛ كلمتان، ثم يسحبها أحدهم خلفه. لم تجادلني، وقالت:

ـــــ أحـــيانا تأتي المسألة فجأة ولا أكون منتبهة، يدخل الواحد مـــنهم علـــي قلبي بحضن كلام، فأنسي نفسي، ولا أدري ما يجري لي.

اندهشتُ؛ لم تكن خجلي مما تقول. تعاملتْ مع الأمر ببساطة:

ـــ ما أحلاك وأنت غيران.

وحاولت أن تطيب خاطري:

ـ أنت شيء آخر.

المجنونة؛ ماذا تقصد؟..هل تظن أنني يمكن أن أحبها؟

سـألتها عن ذلك ساخرا من أفكارها، فارتعش جلد الأفعي في بياض عينيها، وتاهت نظراتها في الأحمر الذي تتوهمه في خضرة عيني، وتنهدت:

ـ ياخرابي؛ أنت لو عشقت تقوم القيامة.

***

لا أشغل نفسي بنازك، هي مجرد رغبة متقطعة تراودني، وأنا عـادة أبخل بنفسي علي النساء، لا أريد أن أبدد بهجتي، أحتاج كل قطرة لنفسي. الضرورة فقط.

قال لي أبي مرة:

ـ نار النسوان تحرقها، أما نار الرجال فتنوّر بصائرها.

التقطت بيضة الديك النادرة من وسط كلامه الكثير.

***

أحـتاج نازك أحيانا لتؤدي بعض الخدمات الصغيرة لزبائني؛ قـراءة كـف أو تغييـر عمـلات، لكن حتي تلك الخدمات يمكن الاستغناء عنها تماما. نازك ليست أكثر من نقطة صغيرة يمكن أن تتلاشي في محيط حياتي التي أصبحت أكثر اتساعا.

حتـي أجـواء الجامعة اتسعت أمامي مع التحسن المستمر في

مظهري ومصروفي. لبستُ الجينز، واشتريت القمصان المستوردة من شارع الشواربي". توسعت في العلاقات، وتجنبت كلام السياسة. مـــاذا يمكـــن أن أجنـــي من المظاهرات والمناقشات حول اتفاقيات الـــسلام إلا المـــشاكل، ومـــاذا يمكنني أن أفعل أكثر من أن أحمي نفسي.؟

ركزت اهتمامي علي أمرين؛ الأول أن أتم دراستي الجامعية، وأنجـــزت ذلك بعد تعثُّر. والثاني أن أستكمل مهارات عملي. كان قـــراري جاهزا؛ سأواصل عملي في الخان، أبواب الرزق مفتوحة علي مصراعيها، وعليَّ أن أنتهز الفرصة.

لكي تتقن مهنة ما عليك أن تتعلم الكثير، وكل معلومة إضافية تقودك للإتقان.

بالنسبة لمهنتي كان علي أن أعرف أسعار كل شئ؛ الذهب والفضة والأحجار والعطارة. وأن أعرف أيضا عناوين الفنادق الرخيصة والشقق المفروشة والمطاعم وأماكن السهر. وأن أوسع دائرة علاقاتي مع سماسرة وسائقين وتجار وعرافين وسحرة، وأن أحدد أهمية علاقاتي حسب نسبة العمولة.

طبيعي أن أعرف المعلومات الضرورية عن آثار المدينة، لكنني لا أشغل نفسي بها كثيرا. أعرف أيضا أساسيات الجغرافيا والتاريخ والسياسة، ولكن في حدود المعلومات العامة التي لا تثير نقاشا، ولا تورِّطني في خلاف مع أحد.

أهتم كثيرا باللغات وعلوم النفس والفلك والطبيعة. ربما جاء اهتمامي بالفلك بحكم دراستي أساسا، لكنني اكتشفت أن تلك الموضوعات الكونية تثير الناس من كل الأجناس، وتفتح بينهم مساحات آمنه للكلام والتأمل. كنت أستخدم معلوماتي العلمية في

تفــسير بعــض الظواهر الطبيعية والنفسية الخارقة؛ أبدو عند ذلك مبهرا.

الحــاج حسين جوهر قادني إلي اهتمام غريب ومهم؛ الأحجار الكريمة.

كان يحب مهنته الموروثة ويعتبرها مستودعا للأسرار الكونية. يحدثني عن ذلك حين أزوره في متجره:

ـــ لكل حجر فائدة لا يعرفها إلا أهل الأسرار، الزمرُّد يبطل عمــل الــسموم ويفقأ عين الأفاعي ببريقه، والياقوت يجلب الهيبة، والفيــروز يدفــع نظرة الحاسد. الراسخون في العلم يعرفون ما لا نعرف، وتركوا لنا علامات نهتدي بها. خاتم النبي سليمان كان من العقــيق الــسليماني، وخاتم الإمام عليّ من الحجر الصيني، وعصا موسي من الكوك.

ويشرح لي:

ـــ الكــوك خشب وليس صخرا ولا معدنا، أصله من شجر يــزرعونه في بلاد بعيدة، وفيه من الأسرار ما لا يحيط به إنسان، يكفي أنه شقَّ البحر وأبطل شر سحرة فرعون.

أرتاحُ للحديث مع الحاج حسين، لكنني لا أطيق الكلام أبدا مع نــازك، لا أصــبر علــيها. كلامهــا أخلاط من تعبيرات غامضة وتشبيهات غريبة متشابكة، تجعلك تتوه بين المعاني وتستغرق وقتا

أطول في الفهم. أتعامل معها أغلب الأحيان كصوت، مجرد صوت. أحـــس حالاتهـــا من نبراتها، فأتعامل معها حسب ما أفهم وأختصر الكلام.

تضجر نازك من سكوتي خاصة في لقاءاتنا المنفردة، فتقرص شفتي وتعاتبني:

ــ بخيل حتي بالكلام يا وعْدي. أسمِعْني صوتك؛ كلِّمني.

قلت لها مرارا إنني أفضل الكلام مع نفسي، وهي كانت ترد:

ـــــ الكلام يكون بين اثنين؛ لسان يقول وأذن تسمع، أما كلام الواحد مع نفسه فهو خيال كلام.

كلامها مفهوم حتي الآن، أما بعد ذلك فتوهان:

ــ "الواطي" كان مثلك، لا يسمع غيره، ولا يكلم إلا نفسه، لكن الملائكة سمعوا كلامه لنفسه، وفضحوه أمام ربه.

ماذا يمكن أن أفهم من هذا الكلام؟.. هل كانت تشتمني؟

عموما هي سافلة ولا أستبعد ذلك، جاهلة وسافلة.

***

ماتـــت "أم لـــسان" فـــبكت نازك علي كتفي، ونعتها بطريقتها الغريبة:

ــ ذهبت إلي "ستِّنا".

وأخبرتني أنها دفنت معها محارتها:

ــ هي محارة السماء، لم تكن تملك غيرها.

لم أهتم بتخاريفها، بل ولم أهتم حتي بتعزيتها.

ســألتها بعد أيام عما إذا كانت المرحومة علي علم بمغامراتها تحت السرير فأدهشتني؛ تقبلت السؤال ببساطة، وجاوبتني:

ــ كانت عارفة، أو قلبها حاسس.

وفاجأتني:

ـــ أمـــي لـــم تمنعني عن الرجال، لكنها كانت تحذرني من العشق.

***

أحيانا كنت أحاول تعذيبها بفكرة الحلال والحرام، يروق لي أن أفعل ذلك وهي في حضني. لا أكون جادا، وإنما مجرد ملاعبة.

تتلوي وتنكمش في سريري مثل الافعي، وتقول لي:

ــ كيف أعصي الله، وأنا صنعة يده، كما ركَّبني أتصرف.

***

هل بعد هذا كلام؟!

ألــوم نفــسي أحيانا علي أنني سمحت لنازك بالاقتراب مني. تهاونــت كثيرا، وتركتها تقترب إلي درجة أصبحت تخجلني، وهي سخَّرتني في مؤامرات صغيرة تخصها دون أن أدري.

كانــت تتصرف معي بانبهار يرضيني، وربما كان ذلك سبب تهاونــي معهــا. وكانــت تفيدني أيضا في أعمالي، تنقل لي أخبار الخــان، وتحدثني عن نشاط غيري من المرشدين السياحيين الذين يتزايد انتشارهم يوما بعد يوم، وسهلت لي أحيانا الاقتراب من سياح عرب تقرأ طوالعهم، ومن مصريين أيضا.

لــم يكن اقترابها مني مستمرا؛ تقترب فترة وتبتعد أخري. لم أشــغل نفسي بفهم أحوالها الغامضة، وإن كنت أخمن بيسر طبيعة انشغالاتها. أحيانا يكون لديها ما تحاول أن تخفيه.

تغيب وترجع بسيناريو تمثيلي:

* ســافرت للاسكندرية. صيف، والرزق واسع علي مقاهيها، وبحرها جميل.

* جارتنا دخلت المستشفي، رقدت جنبها.

* الانفلونزا كادت تقتلني، وأنت لم تسأل عني.

أحيانا تتورط في روايات متناقضة، وتنشغل أياما طويلة بحل التناقضات بين السيناريوهات المتشابكة:

ــ لم أمكث في الأسكندرية أكثر من يومين، ولذلك لا تجد لون لفحـــة الشمس في وجهي. يومان ومرضت، فرجعت، ورقدت علي السرير.

دائما؛ في رأسي سيناريوهات مختلفة عما ترويه، أخمنها لكنني لا أشغل نفسي بها. أحيانا؛ أنبهها إلي كذبة فاضحة في كلامها:

ــ لم تكوني مريضة، بل كنت في الخان. رؤوف أخبرني أنك سهرت في اللوكاندة، ورأي عبده القهوجي ينتظرك آخر الليل علي الباب.

ــ صحيح؛ حدث ذلك ولكن ليلة الأربعاء، قبل مرضي بليلة.

تغافلت عن مراوغتها في التواريخ، وضيقت خناق الكلام:

ــ وماذا كنت تفعلين مع عبده؟

رنّت ضحكتها:

ــ بيزنس يا وعْدي.

ــ أي بيزنس؟

ــ وهل أسألك عن أسرار شغلك؟

ــ ليس لدي سر أخفيه.

ـــــ وماذا تظن بيني وبين القهوجي؛ إما فلوس أو قضاء مصالح.

وتحدَّتني:

ـ لن أخبرك بشئ، يكفيك الدولار، قرش أو قرشان. الآن أنا أكسب ذهبا.

أفهم طريقتها؛ تلاعبني بما يهمني، تشغلني بالحديث عن الفلوس لتشتت أفكاري بعيدا عن فضائحها.

***

رؤوف هذا يعمل مديرا إداريا للوكاندة " الأنوار". يسمح لنازك أحيانا بالتجول في صالة اللوكاندة لقراءة الكف والفنجان للزبائن، أغلبهم تجار من الأرياف، يمضون ليلة أو ليلتين لتدبير صفقاتهم في الخان، وبعضهم سياح فقراء لا يقدرون علي أسعار الفنادق الراقية.

بين رؤوف ونازك تعاملات لا أعرف مداها، لكنه حين يتحدث عنها معي يلمزها بالكلام. أفهم ما يرمي إليه لكنني لا أهتم. ليس فيما أفهمه مشكلة، مشكلتي الحقيقية بالتحديد هي في حرصها علي الالتصاق بي.

البعض يسألونني عنها وكأنها شيئ يخصني، أخجل من ذلك، وأفكر في الهرب.

***

أعــتقد أن الفرصة الوحيدة للنجاة من النار هي أن تشمها قبل أن تراها، وكلما غفلت عن ذلك قلت فرصك في النجاة.

أشم في كلامها إشارات لا أرتاح إليها. تسالني:

ــ لماذا لا تصدق نفسك؟

ــ فيم أصدقها؟

ــ أنك وعْدي.

ــ وهل أنا مجنون؟

ــ المجنون هو من لا يصدق نفسه.

وتنصحني:

ــ من يصدق جنونه يعقله، اسأل نفسك وصدقها.

***

كأنني كنت أستمع إلي أرسطو أو أفلاطون؛ هأ.

***

لا أعــرف الكثير عن أرسطو أو أفلاطون، لكنني أهتم كثيرا بقراءة الخواطر والتأملات الفلسفية، اكتشفت أنها تشكل مع معارفي العلمية خلطة سحرية تلفت انتباه أي شخص.

أحــتاج إلـــي خبرات كثيرة لاقتناص فرص الشغل مع التزايد المــستمر للسياح. كان العرب بالذات يزحمون شوارع الخان رغم

المقاطعة السياسية، بجلابيبهم البيضاء المميزة ونسائهم المنقبات.

يتجول بعضهم فرادي بملابس عصرية، رجالا أو نساء. عندئذ يـــبدون أكثر تحررا، يتصرفون بلا تحفظ، ويميلون في كلامهم إلي التفلسف واستعراض المعلومات.

كـــسبت كثيرا في تلك الفترة من عمولات اللوكاندات والشقق المفروشـــة، ومـــن تغيير العملات. كسبت وصاحبت، بعضهم كان يحرص علي لقائي في زياراته التالية.

كانت موزة أول زبونة أشْتغلها، نعم "أشتغلها".

التعبير غريب لكنني لا أجد تعبيرا آخر يفوق دقته. أن تشتغل مـــادة طبيعـــية مـــثل الحجر يعني أن تحولها لموضوع شغل، تعيد تشكيلها لتنتفع بها، تشتغلها لتستغلها بالشكل الذي تريده أنت.

هو نفس المعني بالنسبة لإنسان، رجلا كان أم امرأة، لكن يزيد علـــيه أن تلعـــب ببـــرنامج دماغه، تعيد ترتيب رغباته وأولوياته وارتباطاته، أن تدفعه نحو ما تريد.

كانـــت مـــوزة شـــاعرة، تصرف بسخاء، وتحمل معها دائما ديوانها الوحيد "أمطار القبلات". قالت لي إنها من أسرة كبيرة جدا، أهلهـــا أصحاب نفوذ، ولديهم أتباع وخدم، لكنها تضيق بحياتها في بلـــدها وتعـــشق الحـــرية. تريد أن تزور كل الأماكن، وتعيش بين الناس، كل الناس.

فهمـــت من كلامها أنها هاربة من مشكلة عاطفية. لم تحدثني عن ذلك بصراحة إلا بعد وقت طويل من تعارفنا.

اشتغلتها علي مهل بتسخين عاطفي رقيق، ليس من ذلك النوع

الـــذي يؤدي إلي الفراش باستمرار، وإنما إلي الارتباط، الاعتماد، التعود.

* كـــيف حالـــك يـــا موزة، وجدت لك شقة علي النيل، لقطة شاعرية تناسب مزاجك.

* صـــباح الفـــل يا موزة، أقرأ ديوانك علي مهل، وسأحتاجك لفهم بعض الأفكار التي تستعصي علي.

*مـــساء الخير ياموزة، أتابع نقش صورتك علي طبق الفضة، وطلبت من النقاش أن يحفر علي حافة الطبق زخارف من الورد.

* رتَّبْت لك اليوم رحلة إلي الريف، مارأيك؟

***

اشتغلتهاعلي مهل، وهي انشبكت وانشغلت. تحدثني بلهفة:

ـــ اشتريت.. رأيت.. أريد.. تعال.. انتظرني.. مشتاقة..

حـــولها أصـــوات. أفهم الجو؛ رجل، مكان للشرب، خلْوة. لا يهمني ذلك كثيرا، الأهم نتيجة الشغل.

كثرت طلباتها:

ـــــ كيفك يا نور عيني، الشقة ممتازة لكن البواب كلب. هناك أعمال لا يمكن أن أنجزها إلا في بيتي، وهو يضايق ضيوفي كأنه زوج أمي؛ يسأل ويفحص ويصحبهم حتي باب الشقة، كأنه يتجسس علي، يحرجني ويحرجهم.

صـــحيح هو لا يفتح فمه بكلمة لكن نظراته غير مريحة، رغم أننـــي أعطـــيه بسخاء. تصور في كل طلعة مع ضيف يتلكأ طويلا حتـــي أعطيه، ويفحص العملات ببرود قبل أن يضعها في جيبه، لا أرتاح لذلك.

حبيب قلبي، دبِّر لي شقة أخري لا أتعرض فيها لمضايقات من هذا النوع.

***

فهمـــت قصدها. قبل أن تمضي ساعة كنت قد دبرت لها مكانا جديـــدا، شـــقة فخمة في وسط البلد في عمارة أغلب شققها عيادات ومكاتب لا ينقطع زوارها.

كسبت خمسين جنيها من سمسرة الشقة الجديدة، وحصلت علي حق الانتفاع بثلاث ليال في الشقة المطلة علي النيل.

***

دعوت نازك لشقة النيل.

كـــان الـــبواب لطيفا معي عكس ما توقعت، أخبرته أن موزة رحلت وأنني سأستكمل مدة الإيجار المدفوع. حياني علي ما فعلت:

ـــ جدع.

ولمز موزة:

ـــ فتحت الشقة علي البحري، كأن الرجال ستنتهي من الدنيا.

ســـاعد علي المودة معرفة سابقة بيننا، ورائحة مشروب يفوح من فمه. عموما كان لطيفا، قنع بسيجارة من نازك وداعبها:

ـــ تنفعي في الأبهة.

تحيرني نازك، لا تفرح بأشياء كثيرة تبهج غيرها.

أخبـــرتها أنه كانت تقيم هنا امرأة مختلفة؛ شبه أميرة. حاولت ان أدهـــشها بالوضـــع وبالـــشقة، لكنها ألقت جسمها علي الكرسي الهزاز، وأشعلت سيجارة، واستغربت كلامي:

ـــــ فرحان كأنها شقتك أو شقتي، مجرد ليلة وتفوت، وكل واحد يرجع لمكانه. أين الحمام؟

دائما تتصرف علي هذا النحو.

اســـتحمت، غسلت كل ملابسها ونشرتها، وعقدت ملاءه سرير حول عنقها وتحركت بحرية.

ـــ ماذا سنأكل الآن؟

كانـــت مـــوزة قد أخبرتني أنها تركت في الشقة طعاما وبقايا زجاجة ويسكي، لكنني لم أجد شيئا. واضح أن البواب سبقني، ربما أخبرته موزة بالأمر قبل رحيلها فسبقني.

طلـــبت من البواب أن يشتري دجاجة مشوية وسجائر، أحضر الدجاجـــة ومعهـــا بقية زجاجة الويسكي التي سطا عليها، وقال إن موزة أعطتها له قبل رحيلها لكنه لم يحب طعمها، جرّب لكن الطعم

اللاذع جرح زوره.

احتفظ لنفسه ببقية العشرين جنيها مقابل الزجاجة، لم يترك لي فرصة المبادرة بالعطاء.

ــ ليلتك سعيدة.

***

تحــصنت نــازك بالملاءة. كانت بعض تفاصيلها تتكشف في انفــراجات الأطــراف، وهي تمشط شعرها المبلول علي السجادة الخضراء بين صور أمراء الصيد والغزلان النافرة.

أرشــف كأســي علــي مهــل فوق الكرسي الهزاز، وأترقب انكــشافاتها مــن فرجات الملاءة؛ سمرتها النحاسية، ولحمها البض المختمر.

حــين أتأملها هادئة تحت أقدامي؛ أراها مختلفة عن نازك التي أعــرفها في الخان. ثمة شئ يتحرك داخلي، ويعيد تكوينها بأشكال مختلفة.

لا أســتطيع أن أقول إن أيا من ملامحها يتميز بجمال خاص، لكــنها كانت تكوينا فاتنا. أتعجب كيف يمكن أن يخرج هذا التكوين الخــاص البديع من ملامح غير مميزة. قصاقيص عادية تم تركيبها بــشكل يجعلها في النهاية تفوق أي جمال أتخيله. هكذا تبدو لي في تلك الأوقات الحميمة.

كانـــت مفـــتونة بنظراتـــي، لكـــنها بدت حزينة ونادمة علي صحبتي:

ـــ جددت المواجع يا قلبي.

مواجعها دائما مني. عاتبتْني علي أني بعيد عنها دائما:

ـــ دائما قريب وبعيد؛ جواك أبعد من براك.

أخبرتها أني مشغول بمستقبلي:

ـــــ تركت العمل المضمون في الشركات، وأغامر بمستقبلي في الخان، ولابد أن أفعل ذلك بإتقان وبعيدا عن الشبهات.

فهمتْ قصدي؛ فأشارت إلي نفسها، وسألتني:

ـــ أي شبهات؟

ـــ اسألي الناس.

ـــ ولماذا تسمع كلامهم؟

ـــ لا أستطيع أن أسد أذني.

ـــــ طـــبعا، لا نستطيع أن نسد آذاننا، لكننا نستطيع أن نغلق عيونـــنا أو نفـــتحها لنـــري ما نريد. الإذاعة تحدثنا ليل نهار عن الـــرفاهية، بيـــنما نحن نهلك في طوابير الانتظار الطويلة من أجل دجاجة أوصابونة؛ هل نصدق أنفسنا، أم نصدق كلام الحكومة؟. إذا كـــان الـــسماع بالعافـــية فالرؤية بمزاجنا. اسمع، لكن افتح عينيك. السماع وحده من طباع الخدم، ألا يقول الخادم لسيده في التمثيليات:

"لك السمع والطاعة".

سألتها بطريقة مباشرة عن حكاية عبده القهوجي فقالت:

ـــــ ليـــست كمـــا تظن يا وعْدي، الحكاية كلها أوقية حشيش، اشتريتها له من تاجر في اللوكاندة، "سبّوبة" صغيرة.

وأوضحت لي:

ـــ لا أعمل بهذا الصنف، هي مرة وراحت، توبة

وصارحتني:

ـــــ لكنني أدخنه من حين لآخر، أعدل مزاجي بسيجارة كلما زادت الهموم.

لفّت سيجارة وطلبت مني ألا أمنعها:

ـــ دعني أدخِّنها، ربما تنسيني قسوتك.

عـــدت بهـــا للموضـــوع، وحدثتها بما سمعته من آخرين عن أفعالهم معها زمان، تحت سرير أم لسان. قالت:

ـــــ حلاوتـــك في الغيرة يا وعْدي. تلك كانت شقاوة صغار، قبلات وأحضان فقط. ماذا في ذلك ؟.. هو شئ جوانا، لا نخترعه، ولا نشتريه من دكان؛ خلقة ربنا، وكنا صغارا.

دخنت سيجارتها، ثم ألقت نفسها في حضني، وأقسمت:

ـــــ أحلـــف لك بغلاوة "ستّنا"؛ لا يوجد غيرك يا وعْدي، أنت الوحيد الذي أعطيه، أعطيك نفسي.

***

عــزيمة حــية، تتكمش وتتمدد في أحضاني، مثل عجينة بكر لامرأة لم تتشكل بعد، وصوتها يأتيني من عمق جسدها:

ــ يا وعْدي.. يا وعْدي..

***

كيف أصف صوتها؟

لــو ســلَّمْتُ بما درسته في الجامعة عن الانفجار الكبير، وأن الكون بكل تفاصيله ونحن منها مجرد أصداء لهذا الفعل الأول، فإن أصواتنا هي أيضا أصداء متوالية للصوت الأول الذي صاحب تلك الضربة الكبري.

أظن أن لكل صوت بصمة خاصة، مثل بصمة الإصبع التي لا تتكــرر. يختلف حسب قربه أو بعده عن المصدر الأول، الصوت الأول. هــناك صــوت يأتي من القشرة الخارجية؛ السطح، وهناك صــوت يأتــي مــن عمق أبعد، وصوت يأتي من عمق الأعماق؛ الرجفة الأولي.

هــذا صــوتها؛ يأتــيك من عمق مجهول، فتقف علي الحافة المخيفة، وتعيش الرجفة الأولي؛ النغم الأول.

أظــن أيضا أن لديّ ملكة خاصة تؤهلني لاستقبال تلك الذبذبة المميزة في صوتها، لابد أن تكون بيننا توافقات تؤهلني لذلك.

يخيفني الأمر.

أتذكـــر أنني حاولت أن أبسط لها تلك الأفكار في لحظة نزق، وقلت:

ـــ هكذا خلقنا؛ ضربة، وبوم.. بوم.

ســـمعَتْ كلامـــي عـــن "الضربة الأولي"، ومصْمصت شفتيها باستغراب:

ـــــ ضـــربة فـــي قلبك. هل كان غضبانا فيضربنا بالعصا أو يـــرمينا بالقنابل؟!.. بالعكس؛ كان فرحانا ويضحك؛ سبحانه. سمِّها "الضحكة الأولي"، صوتها مازال يرن في أذني.

أتعجب؛ هل فهمت كلامي الصعب؟!

غابـــت نازك عني وعن الخان طويلا. اختفت سنة، ربما أكثر مـــن ســـنة، بالتأكـــيد أكثر. لا أُخفي أنني قلقْت أحيانا، ربما بحكم العادة.

قلقت؛ كنت أبحث بأذني عن بصمة صوتها في شوارع الخان كمـــا تبحث الكلاب البوليسية عن بصمة الرائحة. قلقت ونسيت، ثم عـــدْت للقلق. ذهبت إلي بيتها أسأل عنها فقال الجيران إنها رحلت؛ تركت البيت وانتقلت إلي مسكن جديد:

ـــــ لا نعرف أين، وهي لم تخبر أحدا بعنوانها. نقلت متاعها بعـــربة نـــصف نقل لا نعرف صاحبها ولا سائقها، فعلت ذلك ذات ليل، ورحلت.

في النهاية نسيت السؤال، ربما تعودت علي غيابها كما تعودت علي حضورها.

***

غابـــت ورجعـــت بعد أكثر من سنة. سمعت صوتها ذات ليل يُدوِّي في حارات الخان بلهفة:

– يا وعْدي..

لسعني نداؤها كنيزك حارق.

***

دعونـــي أستدير بوجهي وأحاول أن أتذكر تفاصيل ذلك الليل المخيف.

***

كنت في ذلك الوقت أنتظر عشائي عند عثمان الكبابجي. لففْت رغيفي بسرعة، وتتبعت صوتها في الخان تحت رذاذ مطر خفيف، حتي صادفتها علي أحد المقاهي.

تركت زبائنها، وألقت رأسها في حضني أمام الناس:

ــ آه ياوعْدي.

ــ أين كنت؟

ــ مرت بي أحوال تنهد لها الجبال، وأنت لم تسأل عني.

ــ سألت جيرانك، ولم أعرف عنوانك الجديد.

ــ لو اهتممت لعرفت.

وعاتبني:

ــ أنت تائه مع "الأفندي". ارحم نفسك، وارحمني.

***

أمـــضت أغلب الليل معي، في شقتي. أكلتُ رغيف اللحم علي

مهل، وهي اكتفت ببيضتين وقطعة جبن، ولفت أربع سجائر.

انتظـــرت أن تحكـــي، لكـــنها تجاهلت الموضوع. كانت قلقة ومتـــرددة، وحزينة أيضا. استفسرت عن أحوال الخان، وحسدتْني علي تجديدات الشقة:

ـــــ دهنـــتها بالـــزيت، وجددت الفرش. وصار عندك تليفون وتليفزيون وغسالة.

وسألتني وهي تتمدد جنبي وتشير للمكيف:

ـــ بكم اشتريته؟

رفستها، وذكرتها بالسؤال الأهم:

ـــ أين كنت؟

ـــ وأين تظنني كنت؟!.. درت في بلاد الله أبحث عن رزقي.

ـــ أي بلاد؟

ـــ وماذا يهمني من الأسماء؟!. بلاد؛ في كل بلد ناس وأشجار وطـــيور، وشـــمس وقمـــر، وأرزاق تنتظـــر أصحابها. بلاد تشبه بعضها، فلماذا أشغل نفسي بالأسماء؟

الماكـــرة، كنت متأكدا أنها تكذب، وأن وراءها سرا لا أستطيع أن أخمـــنه. فـــضلت أن أهملهـــا قليلا، وأن أخفي اهتمامي بمعرفة أحـــوالها. تشاغلت عنها بزجاجة بيرة، وإجراء مكالمات مع بعض الزبائن.

هـــي لفّـــت مزيدا من السجائر. أطفات النور، وجلست عارية علي السرير.

كـــان شـــباكي المترب المستدير يخفف عتمة الغرفة بومضات بروق وبصيص من ضوء مصباح الشارع، وكانت ظلال فراشات هائمـــة تسبح علي الجدران، ووجه نازك يتبدل بأكثر من حال في أخلاط النور والظلال.

تكـــوين وجههـــا الغريب يجعلني أراها بأشكال مختلفة. تنتظم قصاقيص ملامحها في وجوه تتبدل باستمرار، حسب حركة وجهها وزاوية رؤيتي. مع كل لفتة تتغير الرؤية.

أري وجهها من فوق بأجفانه العريضة المثقلة بالرموش وكأنها تهم بالغروب. وأراها من أسفل امرأة تهم بالشروق، تتفتح في عتمة الرجفة الأولي.

غربت عيناها طويلا وهي تدخن، ثم هزت رأسها، وعاتبتني:

ـــــ لا تـــبدو مرتاحا لعودتي، وأظنك كنت سعيدا لغيابي. لم تشغل نفسك بي، ولم يهمك إن كنت مت، أو سجنت.

كنت ممددا علي ظهري بملابسي أنتظر الإجابة، وهي جالسة عاريـــة أمامـــي تتحسس ثديها كأنه يؤلمها. تجاهلتها طويلا، وهي قرأت السؤال المعلق في عيني. حايلتني:

ـــ هل تصدقني؟.. عموما؛ لابد أن أخبرك. الحقيقة أن "ستِّنا"

نادتني؛ نسيت نفسي وتهت. درت في البلاد، أطرق الأبواب، وأنام علي الأعتاب، ولما تعبت رجعت.

ــ من "ستِّنا"؟

ــ ستِّنا.. ستِّنا.. ستِّنا..

***

تــرفُّ ظــلال الفراشــات حول وجهها، وهي تتحسس ثدييها وتحكــي. كــان صوتها يختلط بالرعود، يأتي من عمق الأصداء البعيدة؛ الأصداء الأولي:

ــ هي "ستِّنا" كلنا. كانت من أول الدنيا وسط الستات، هائمة ما بــين الأرض والــسماوات. كــل واحدة علي حصانها، هو رجُلها وفــراش حــنانها، وفوقهن الأغصان؛ بلح وتين ورمان، ومن كل فاكهة السماء ألوان.

تتبختر قوافل الستات، وأمامها العرافات يقرأن مسالك النجوم، وخلفها البنات بالدفوف والصاجات.

في يوم من الأيام؛ نام الملائكة من التعب والسهر، وغفلوا عن أمــر الأغصان، كأنهم نسوا وطال نسيانهم، وكله كان بالأمر. مع غــروب الشمس جاعت "ستِّنا"، وجوعها كان شوقها، جاعت وطال جوعها.

ومر يوم بعد يوم، ومع شروق الشمس السادسة رأت في مرايا

الأرض بـــساتين الـــسماء، نزلت بجوعها وشوقها، نزلت وتركت حصانها. وكان نزولها جنب باب الخلق، خارج الأسوار.

كان خارج الأسوار خليج وزرع، أكلت وشكرت، ولما شبعت ثقلـــت. حاولت تعود إلي فوق لكنها وقعت. وقعت ووقعت ووقعت، وحصانها ما بين السماء والأرض ينظرها، ويصهل بحزنه عليها.

وطال زمانها علي الأرض.

تمشي وحولها ذكور الخلائق تسبِّح حسنها، من كل نوع فرد؛ حـــيوان وطير وشجر. و"ستِّنا" وسطهم طول وعرض، الجلد طيات ورد، ونظـــرة العـــين وعـــد، والفم إبريق سعد. تقطف من وردها وتعطيهم، وتسقيهم.

وداخل الأسوار كان "الواطي"، لا عينه تري الجمال، ولا قلبه يعرف العشق. عجوز قبيح، بعين زجاج وقلب حجر ووجه صفيح، لكـــنه صـــاحب جـــيش وأمـــر. حوله حرس، وفي يده جرس، إذا صلصل يركع له البشر.

ذات يـــوم جاءه جاسوسه بالخبر، وأنذره بالخطر، دقت طبول الخـــوف فـــي القـــصر. طلع لها بالشر، وحرمها من نفسها. آه يا "ستِّنا".

خـــرج لهـــا من باب الفتوح ساعة مكر، صادها بشباك الغدر، ورجـــع بها من باب النصر. دار في المدينة بصيده، علي كل باب،

وعند بوابة الموت سلخها حية، وتلفع بجلدها. آه يا "ستِّنا".

الـشمس كانت ساعة غروب وهمّ، رسمت علي البوابة خيال قتيل ودم. آه يا "ستِّنا".

"الواطي" عاد للقصر، وهناك أمَر، وكان الأمْر؛ دقَّوا المسامير في جلدها المسلوخ، وكسوا به العرش. قعد علي الفرش، واستكبر. "الواطي".

"ستِّنا" لم تسكت.

قامت له من موتها، دبَت حلاوة الروح في جلدها، التصقت في جسمه بنارها، وهو مربوط بكرسيه، لا قادر يردها، ولا قادر يقوم لها. ياويله؛ "الواطي".

وبعـد حـين وحـين؛ مر الملائكة وتحيروا في حاله. رفعوه بكرسـيه إلـي فـوق، ووضعوه في المفترق ما بين جنته وناره، ودخلـوا يعرضـون أمره علي ربه. تركوه، ونسوه. كأنهم نسوه، وكله كان بالأمر.

من ذلك اليوم وهو في مكانه؛ الجنة أمامه ينظر نعيمها بعينه، وجهـنم فـي ظهره تلسعه بنارها. يا ويله؛ أصعب العذاب عذابه؛ "الواطي".

مـن ذلـك اليوم وحصانها بين السماء والأرض، يرمح أمام القوافل ويصهل بحزنه عليها. آه يا "ستِّنا".

***

كانت تبكي بجد.

***

انصرفت نازك، كانت قلقة ومتعجلة.

راقبت خروجها من الدرب من خلال هالة شباكي التي نقر ترابها رذاذ مطر خفيف.

أخلاط من صياح الديكة وتسابيح الفجر تتردد في الآفاق، ونازك ترفع أطراف عباءتها، وتتفادي حفر الطريق، وتتلفت نحوي. كانت ملامحها تتكشّف مع الومضات الأولي، وتتشكل في كل مرة بوجه جديد.

كان أداؤها في ذلك الليل مدهشا، وزادني ارتباكا. لم استبعد احتمال الجنون، لكنني قدرت أنه أضعف الاحتمالات.

انتظـــرت طويلا أن أعرف سر غيابها، وظلت هي تتخبط في سيناريوهات متناقضة، وتبتكر حكايات جديدة تزيدها ارتباكا.

قالت مرة إنها كانت مسافرة للخليج.

ــ وماذا كنت تفعلين هناك؟

ــ الشغل كثير.

وقالت مرة إنها سافرت لتعمل مربية لبنت يتيمة، ورجعت بعد أن وفرت مالا يحميها من العوز.

أســـمع، وأرمي كلامها خلف ظهري. صحيح أنها أصبحت لا تعمـــل كثيـــرا وتتفادي السهر الطويل، لكن ذلك لا يعني أن لديها مايغنـــيها عـــن العمل. أمر مثل هذا لا تخفي أماراته علي، ثم أن سلوكها يفضحها؛ أصبحت الآن أقل سخاء، وتحاسبني بالقرش حتي علي سيجارة:

ــ قرشي ينفعني أحسن منك.

صادفتها مرة تشتري لعبة، كانت تجربها بفرح، وعندما رأتني سألتني:

ـ ألا تناسب البنت؟

ـ أي بنت؟

ـ حبيبتي، التي ربيتها هناك، سأرسلها لها في عيد ميلادها.

كبر سيناريو "البنت" معها فاختلط عليها الكلام. قالت إن البنت مرضت، وهي رقدت جنبها يومين حتي خفت سخونتها. سألتها:

ـ أليست البنت عند أهلها في بلدها؟

ـ طبعا، مع أهلها هناك.

تاهت في الكلام وهي تحاول أن تمحو سهوها:

ـ كان حلما، هكذا يحسّ قلبي بأحوالها دائما.

ـ حلم يستمر يومين؟!

ـ هو أمر غريب حقا، لا أعرف إن كان حلما أم علما. هكذا الدنيا أيضا، لا تعرف أهي حلْم أم علْم.

تجري بي من معني إلي معني ولا تبوح. أتوه لو أخذتها مأخذ الجد.

***

لـم تـصارحني نازك بسرها إلا بعد أكثر من خمس سنوات. فعلت ذلك بمكر واحتراس، وسحبتني خطوة بعد خطوة:

* واحـدة من صاحباتي في ورطة، ولا أدري ماذا أفعل من أجلها.

* مسكينة صاحبتي؛ البنت معلقة برقبتها، وهي لا تعرف ماذا تفعل لها.

* لو أخبَرتْه لن يصدق؛ "الواطي".

فهمـــت الحكاية من إشاراتها؛ بنت بلا أب، ونسبها ضائع بين الرجال. ضجرت من الكلام في الموضوع، فنهرتها:

ــ وما شأني أو شأنك بالأمر؟.. هي غلطتها، ولا بد أن تتحمل نتائجها.

شـــرحت لـــي أن المـــشكلة لا تخص الأم، وإنما تخص البنت الصغيرة:

ـــــ عمـــرها الآن يقتـــرب من ست سنوات، ولابد أن تدخل المدرسة. ذهبت أمها بها، فطلبوا شهادة الميلاد. البنت أمامهم، لكن لابد من الورقة.

ــ وما المشكلة؟

ــ هي لم تستخرج شهادة ميلاد أصلا.

ــ وما دخلنا بالأمر؟

ــ الأم صاحبتي وأتمني أن أساعدها، ولو عندك حل دبّرني.

وظلت تطاردني:

ــ هل وجدت حلا ؟

***

بكت علي كتفي بحرقة ذات مساء، ورجتني:

ــ دبِّرني.

واعترفت:

ـــ ليست صاحبتي، وإنما أنا، والبنت ابنتي. لا أريدها أن تضيع في الشوارع مثلي.

هممت أن أسألها، فخطفت يدي تقبلها، واستبقت كلامي:

ــ أبوس رجلك؛ لا تسألني عن أبيها.

توقعت بقية الإسطوانة، فسبقتها بالكلام:

ــ .." الواطي".

ــ أقولها بلساني فقط ؛ أنا التي كنت أريده، فكيف أكرهه.

وعادت ترجوني:

ــ من يساعدني غيرك؟

كان من السهل أن أخمن الأمر قبل اعترافها الصريح. إلحاحها المستمر وحرصها المستميت علي إخفاء عنوانها جعل ذلك أقوي الاحتمالات، لم يفاجئني الاعتراف.

أردت أن أنهي الكلام، فوعدتها بأنني سأحاول. انفرجت عيناها عن ابتسامة وسط الدموع والحزن، وشهقت وهي تقبلني:

ــ سامحني إذا كنت أثقل عليك.

وخطفتني في حضنها:

ـ آه ياوعْدي. في عينيك نار تحرق قلبي.

كانت بقية السهرة عاطفية.

***

فكــرت، ولجــأت في النهاية إلي الحاج حسين. لم أجد غيره أضمن أن يحفظ سر نازك حتي لو رفض المساعدة. ضاقت أقواس وجهه وهو يسمع حتي كادت تخنقني:

ـ سرها في بير، لكن من فعل ذلك؟

ـ لم تخبرني، وأظن أنها لن تخبر أحدا.

ـ لابد أن يكون لابنتها أب.

ـ بالتأكيد، لكنها لا تريد أن تبوح باسمه.

ـ لماذا، هل تخاف منه؟

ـ وربما لا تستطيع أن تخمن من يكون.

قلتها، وعددت علي أصابعي:

ـ عبده القهوجي، أم عثمان الكبابجي، أم رؤوف، أم..

احتضنتني أقواس وجهه بابتسامة ماكرة، واقترح:

ـ إذن تزوجها، وانقذ الأمر بنفسك، ويظل الأمر سرا بيننا.

نفــرت من الفكرة ومن المعني المستور في باطن الكلام، وهو حاول التخفيف:

ـ زواج علي الورق فقط، وطلقها في اليوم التالي.

كـــنت خجـــلا من الموقف كله. نهضت، وقلت له إنني آسف لتدخُّلي في الموضوع من أساسه:

ـــــ ما شأني بهذه الحقيرة، لن أجلب لنفسي إلا الكلام الفاضي وسوء الظن.

شدني من يدي لأجلس:

ـــ لابد ان نجد لها حلا، ولن يكون الحل إلا بورقة زواج نثبت بها نسب البنت.

ـــ زواج نازك الآن لن يحل المشكلة.

شرحت له الحكاية مرة أخري، وحددت له المشكلة بدقة:

ـــــ عمر البنت يقترب من ست سنوات، وتحتاج شهادة ميلاد لتدخل المدرسة.

ـــ ست سنوات؟!

ـــ ست سنوات.

ـــ وتحتاج شهادة ميلاد مزورة لتدخل المدرسة؟

ـــ نعم.

ـــ وقد تحتاج شهادات مزورة أخري.

ـــ إذا لزم الأمر.

ـــــ فهمـــت قصدك؛ المطلوب أن نخترع البنت اختراعا، أن نخرجها من العدم بورقة رسمية معتمدة بخاتم النسر.

ـ بالضبط.

ـ وكل ذلك بالتزوير.

كدت أنهض مرة أخري معتذرا، لكنه شد يدي ليمنعني:

ـ المسألة صعبة، لكن لابد أن نجد لها حلا. اجلس.

وشـــرح لـــي أن هذا الموضوع خطير جدا، ويحتاج إلي رجل كبير:

ـ كبير، ومعه حجاب كبير.

ســـمعت مـــنه هذا التعبير من قبل، لم يكن يقصد تلك الأحجبة التي يكتبها السحرة للناس لجلب المنافع ودفع الشرور، وإنما يقصد الكارنيهات الرسمية التي يعتبرها تعاويذ العصر السحرية:

ـــ كـــل حجاب يفتح بابا، والحجاب الذي نريد لابد أن يكون كبيرا، ويفتح أكثر من باب.

واستمهلني:

ـ الأمر صعب؛ لا تتعجل، ولا تسألني عن شئ. وعندما أجد الحل سأخبرك.

***

لـــم تكـــف نـــازك عن مطاردتي بالأسئلة، وزادت إلحاحا مع اقتراب موعد المدارس:

ـ ماذا فعلت؟

نـــصحتها أكثر من مرة أن تبحث عن حل لمشكلة ابنتها بعيدا عني، ونهرتها:

ــ الموضوع يخجلني. طلبت المساعدة من صديق ولم يرد، لن أفعل ذلك مرة أخري.

أهملـــتها فتـــرة، لم أكن مستعدا لتحمل إلحاحها المستمر، ولا مستعدا لفتح الموضوع مع الحاج حسين مرة أخري. صرْتُ أعاملها كشئ عارض حين أصادفها:

ــ سلام.

هـــي أيـــضا كانـــت فاترة، تشيح بوجهها عني، وأحيانا يكون ردها:

ــ لا سلام ولا كلام، ابعد عني.

بعُـــدَتْ، لكنني كنت أعرف كيف أجذبها إلي مرة أخري حين أحتاجها.

***

صحبتها إلي موزة لتقرأ لها الكف.

كانـــت موزة قد استقرت هنا تقريباً، أصبح سفرها لبلدها نادراً وقـــصيراً. حجـــتها أنها تدرس الماجستير، والحقيقة أنها تعيش كما تـــريد؛ تـــسكر، وتـــسهر علي مقاهي وسط البلد، وتنشر أشعارها وأخـــبارها وصورها في الصحف والمجلات. طبعت ديوانين علي نفقتها، والثالث في الطريق.

عادت من آخر زيارة لبلدها قلقة وضجرة. كانت ساخطة علي كـــل شـــئ هـــناك، تـــتحدث عن موضوع يبدو عاطفياً، لكنها لم تصارحني بشئ. تلف وتدور بالكلام وتسألني:

ــ هل كل الرجال يفضلون مصالحهم علي الحب؟!

لـــم تصارحني، لكنني خمنت دوافعها للاقتراب مني. اشتغلتها علـــي مهـــل؛ ســـحبتها إلي سهرات مختلفة المذاق؛ أماكن شعبية، وموالد، وصالات للرقص.

هي أيضاً، أشركتني في سهراتها الخاصة.

أغلـــب أصـــدقائها كتاب وصحفيون، صادفت بينهم زميلي في الجامعـــة فايـــز ناصف. كان شاعر واعداً أيام الدراسة، لكنني لا

أعرف أخباره بعد ذلك.

أخبرنـــي باقتضاب وتعال أنه سافر فور تخرجه ليعمل مدرسا في الخليج، ثم عاد ليشتغل بالصحافة. وسألني :

ــ وأنت؛ ماذا تعمل؟

قدمت له بطاقة التعريف، فقرأها علي مهل وبصوت عال:

ــ "حبيب الله الأفندي.. مرشد سياحي".

وسألني:

ـــ كـيف حـصلت علي ترخيص بالعمل في السياحة بينما شهادتك من كلية العلوم مثلي؟!

ــ أعمل بدون ترخيص.

ــ فهمت، تعمل "خرتيا".

صـــدمتني الكلمـــة، وهـــو حاول التخفيف. استغرق في شرح طويل حول معني كلمة "خرتي" وأصلها، وقال:

ـــ أضـــعف التفسيرات أن الكلمة تركية ومعناها "الفهلوي"، والمعني ليس سيئا؛ "الفهلوة" لغة العصر.

تودَّد إلي؛ ناولني بطاقته، وقال وهو يشير إلي رقم الهاتف:

ـــ اتـــصل بـــي لنتفق علي موعد. أجلس أحياناً علي مقهي »البستان« في وسط البلد، أتمني أن أراك هناك. ستجد علي المقهي زملاء لك من المرشدين السياحيين.

تعامل فايز مع الجميع بتعال ومرح ساخر، وخصَّ موزة بمرح ودود. هي ركعت قربه وأسمعته آخر قصائدها، وهو أغمض عينيه طويلاً، ثم طلب كأسا قبل أن يستفيض في التعليق علي الشعر.

بـــصراحة؛ لـــم أفهـــم اتجاها لكلامه، لكنه كان لطيفا وأبويا، ويتـــصرف كأستاذ. عموما عامله الجميع باحترام. قدَّرتُ المسألة؛ شاعر وصحفي.

لم أكن أعرف عنه الكثير.

***

تـــسْعد موزة بالسهرات، تنفق بسخاء، وتستبقي ضيوفها حتي آخر قطرة في الكأس. أحياناً تستبقيني معها، ومرات أهرب. أخلي الطـــريق بيـــنها وبين آخرين، وأهرب. لا أريد أن أبدد نفسي في مهمة واحدة، ينتظرني زبائن، وأمامي فرص أخري.

طبيعـــي أن أحـــافظ علي طاقتي. أنا رجل فقير، وضعت كل مدخراتـــي فـــي شراء أرض، ورأسمالي الآن جهدي ويقظتي. لو بددت قدراتي يتوقف عملي، أجوع.

أتابـــع أوضاعي الصحية بالفحص والتحليل، وأحتاط للإرهاق والتعب والضعف.

أزعجنـــي ما تنشره الصحف عن انتشار حالات الضعف بين الـــرجال. قـــرأت طـــويلا عـــن الموضوع، واهتديت إلي طريقة

تعصمني من هذا الاحتمال المخيف. مجرد تمرين بسيط، يمكنني أن أمارسه وسط الناس دون أن يشعر بي أحد، تمرين سري.

أمـــارس التمـــرين بانتظام؛ أقبض عضلتي الأمامية بقوة، ثم أتركها تنبسط ببطء. أكرر ذلك خمسين مرة في كل تمرين. جرّبت، واسترحت للنتائج.

أنـــبض فـــي أي وقت وأي مكان لأكون علي أهبة الإستعداد، لكننـــي أهـــرب إذا سنحت الفرصة. أحتفظ بكل قطرة مني، أبخل ببهجتي.

***

تحاصـــرني مـــوزة، تسعد بكل سهرة في حينها، لكنها تصحو ضجرة عصر اليوم التالي. تعود لأسئلتها:

ـــ هل كل الرجال جبناء؟

وأحيانا تفاجئني بطلباتها:

ـــــ أريـــد شيئاً مختلفا وأكثر إثارة، هل يمكن أن تحضر لي ساحرا أو عرافا؟

لم يكن أمامي غير نازك.

***

تعاملت نازك مع كلامي باحتراس، وسألتني:

ـــ ماذا بينك وبين هذه "الموزة"؟

ـ شغل، مجرد شغل.

ـ أي شغل يا روح أمك؛ خياطة أم تطريز؟

حسمْتُ الكلام بطريقتي؛ لوَّحْتُ لها بخمسين جنيها، وسألتها:

ـ نعم أم لا؟

خطفت الأوراق الحمراء من يدي، وتبعتني.

***

أثـار مـنديل الترتر علي رأس نازك شغف موزة، قالت إنها ستشتري مثله، ولن تخجل من لبسه:

ـ جميل ، ومبهج، وفيه جرأة.

وسألتها:

ـ هل أنت سعيدة يا نازك؟

ـ سـبحانه؛ قـسَم وعـدَل، أعطي لكل واحد حقه، الأربعة وعـشرين قيـراط، نـصيبه بالتمام. بالنسبة لي زادني من الصحة وأنقصني من راحة البال، نحمده.

ودخلت عليها بالكلام:

ـ وأنـت أيضاً، زادك في المال والجمال، وأخذ منك راحة البال. أعطني كفك.

***

نصَحَتْها نازك:

ـــــ احـــذري "الواطي"، ولا تأمني البخيل، ولا تكذِّبي ما تراه عيناك.

وحدَّدتْ لها المشكلة وهي تشير إلي خطوط الكف:

ـــ قلبك يعاند عقلك، كل خط في طريق غير الآخر؛ عكسه.

وأكملت قراءتها بالفنجان:

ـــ خطوطه أوضح، ورسومه تكشف المستور.

وقالت لها:

ـــــ هذا هو؛ قاعد بناره في قاع الفنجان، مكانه تحت رجليك، لكـــن نظـــره لمـــا تحت قدميه. عينه عين صقر، وقلبه عتمة قبر. يهرب من سعده، ويخاف أن يعطي.

لـــم أستطع أن أخمن إن كانت تقصدني، أم تحاول أن "تشتغل" موزة بطريقتها.

انبهرت موزة بالكلام:

ـــ صح، كله صح، ما شكله؟

ـــ لا أري "برّاه" بوضوح، لكنني أري "جواه"؛ خواف.

ـــ وما آخر الحكاية؟

ـــ أولها كلام، وآخرها لا كلام ولا سلام.

ـــ والحل؟

ـــ الفرع الذي ينبت أعوجا لا ينعدل.

كانت موزة حزينة، لكنها عاملتها بكرم. زادتها عشرين جنيها علي الخمسين، ووهبتها كثيرا من ملابسها القديمة.

أعطتني نازك العشرين وقالت:

ــ تكفيني صرة الهدوم. صحيح أن مقاسها لا يناسبني، لكنها تنفع ابنتي حين تكبر.

لم تسترسل في الحديث.

عمــوما كنت أميل في الفتره الأخيرة إلي اعتبار حكاية ابنتها وهما، نوعا خاصا من أكاذيبها. لا أهتم.

فاجأني الحاج حسين بالحل:

ــ غدا نتسلم كل الأوراق المطلوبة، جهّز ثلاثة آلآف.

***

ولولت نازك في وجهي:

ــ ثلاثة؟

ــ اطلبيها من أبيها، لابد أن يتحمل شيئا.

ــ "الواطي".

كانت تتحدث بازدراء؛ بصقت الكلمة وسحقتها برجلها، وقالت إنه لن يتحمل شيئا، لأنه لا يعرف الموضوع من أساسه.

ــ لكن لابد أن يعرف، هذا حقه، وليفعل بعد ذلك ما يشاء.

قفزت علي كلامي، وحسمت النقاش:

ــ انس موضوع أبيها، كم تريد؟

ــ ثلاثة آلاف.

ــ سأدفعها علي حذائي.

أحرقت جنيها، وذرت رماده في وجهي:

ـ ملعون أبوها؛ "الواطي". وملعون أبو الفلوس.

***

صحبني الحاج حسين معه لتسلم الشهادات. كان يجاهد صعود الأدوار الثلاثة بتعب مثل ملاك عجوز يصعد إلي السماء. ضبطْتُ خطواتي علي قدر جهده وهو يصعد ويحدثني:

ـ الكبير كبير، نتعب حتي نصل إليه، وأحيانا نتعب ولا نجده. عذرنا أننا نحاول، المسألة تستحق.

أعطانـــي الأوراق المـــزورة لأسلمها لنازك، وطلب مني ألا أخبـــرها بـــأي شئ عن تدخله في الموضوع، ثم فرد شهادة الميلاد أمامي وأشار بإصبعه:

ـــ بدون هذا التوقيع وهذا الختم لا وجود للإنسان في الحياة. ربـــك يخلق كما يشاء وهم الذين يُثْبتون وجودك من عدمك في هذه الدنيا. أختامهم حجج، وتوقيعاتهم قضاء نافذ. وكل شئ عن أرزاقنا وأعمارنا مكتوب عندهم.

***

أعطيت نازك الأوراق.

شكرتني، لكنها تحسرت علي الآلاف التي دفعتها:

ـ ورقة الزور أصبحت أغلي من كلمة الحق.

أفكارها لاتزال تدور تحت سقف الآلاف، بينما الناس يتحدثون

بلغة "الأرنب".

تعنـــي الكلمـــة في السوق المليون جنيه، وهناك حكمة شائعة تقـــول إن اصـــطياد "الأرنب" الأول صعب، لكنه يفتح الطريق إلي المـــزيد، يـــتوالد بسرعة وبلا جهد، تماما مثل ذلك الحيوان الجبان سريع التكاثر.

الفـــرص ليست سهلة، ولكنها ليست صعبة جدا. يمكن أن تأتـــيك علـــي مهل لو أحسنت استغلال الظروف، ويمكن أن تأتيك فجأة بضربة حظ.

أنـــا شخصيا كنت أزحف نحو المليون، أتقدم ببطء لكن بثبات. جمعـــت الآلاف الأولـــي بعملـــي فـــي السياحة، وقفزت نحو عالم "الأرانب" بضربة حظ.

صـــادفني الحـــظ في قطعة أرض، كسبت منها أربعمائة ألف جنيه دفعة واحدة. كانت عشرة أفدنة، اشتريت الفدان بألفين، وبعت المتر بعشرة جنيهات: "١٠ × ٤٢٠٠٠ = ٤٢٠ ألف جنيه".

لـــو صبرت علي البيع عاما آخر لعبرت حاجز المليون بقفزة واحـــدة، لكن منازعات الأراضي والعقارات التي انتشرت في تلك الفترة أقلقتني بشدة، ففضلت أن أبيع.

لا تكفـــي مـــستندات الملكية لحفظ حقك مهما كانت صحيحة. المهـــم حمايـــة الحيازة. لو وضع أحد أصحاب القوة أو الحيلة يده

علـــي أرضك أو شقتك فعليك السلام. أمامك صراع طويل، بلطجة ومحـــاكم ومدعـــي اشـــتراكي. لن تحصل في المساومات المعقدة الطويلة إلا علي ما دفعته للشراء، وربما تخسره أيضا.

ســـيواجهك خصومك بعقود تاريخها أسبق من عقدك، إما أنها مـــزورة، وإما أن تكونوا جميعا ضحايا نصاب باع الأرض لأكثر من واحد. المهم في هذه الحالة أمام القانون هو الحيازة، وضع اليد، الـــبلطجة. ثغـــرات القانون كثيرة، وحيل المحامين أكثر، والشاطر يكسب.

قادني لضربة الحظ نزيل في لوكاندة "الأنوار". صاحب مصنع أقمـــشة في الغربية، يتردد علي اللوكاندة باستمرار لتسويق إنتاجه لـــدي تجـــار الجملة. يعتمد عليَّ أحيانا في ترتيب سهرة، أو تدبير دولارات يحتاجها فجأة وبكميات كبيرة.

كـــان ذكـــيا ولـــبقا، يـــنفق بـــسخاء، ويتحرك بنشاط في كل الاتجاهات؛ دولارات، عقارات، استيراد، تصدير، أي شئ. ويقول:

ـــــ من لا يعرف كيف يكسب هذه الأيام، لن يمسك "الأرنب" بيديه أبدا.

رأيته يشتري الأراضي بحماس، يدفع المائة ألف في عقد واحد بلا تردد ولا خوف. وسمعته ينصح من حوله:

ـــ زماننا هذا ليس زمن صناعة ولا زراعة، هو زمن صناعة

فلوس وزراعة "أرانب"، والأراضي أسرع طريق.

هو الذي دلَّني علي الأرض، ونصحني:

ـــ لا تتردد، اشتر، ولن تنسي اسمي أبدا، ستتذكر دائما أنني كنت مفتاح سعْدك.

أغرتني اللعبة.

كـــيف أنساه؟!.. نصيحته الثمينة اختصرت لي نصف الطريق إلـــي عـــالم "الأرانب"، ثم أن قضية أراضيه الشهيرة أمام المدعي الاشـــتراكي جعلت اسمه معروفا لكل الناس؛ الغرباوي، أبو سريع الغرباوي.

أنـــا نجوت بنفسي مبكرا، بعت الأرض، وهربت بفلوسي إلي البنك، أودعتها بالدولار.

ضيعت فرصا كثيرة بخوفي، لكنني في النهاية أحسن حالا من غيري، خاصة زملاء الدراسة. سعداء الحظ منهم عملوا بالتدريس، ويحلون مشاكلهم بالدروس الخصوصية، أو بالسفر للخارج. الأكثر طمـــوحا عملوا في الجامعة أو في مراكز البحوث، وحصلوا علي شـــهادات بالدكـــتوراه. أصادف بعضهم أحيانا، فقراء ومغرورون، الدكتور فلان؛ طظ.

***

اشتريت بعدها شقة في المهندسين.

أؤجرها مفروشة للسياح، ويزيد سعرها يوما بعد يوم مع تزايد إقبال العاملين في الخارج علي شراء العقارات. لو حسبت رصيدي الـــدولاري والـــشقة بأسعار السوق اليوم؛ لوجدت أنني اقترب من اصطياد "الأرنب" الأول.

لا أبخـــل علـــي نازك بخدماتي، ولا أنسي أنها كانت أول من وضـــع خطواتـــي علي طريق الفلوس. أستعين بها لتنظيف شقتي المفروشـــة، أو لخدمـــة النزيل. يعجبها الزبون أحيانا فتنام. تغيب يومين أو ثلاثة وتعود ساخطة:

ـــ بماذا تحدث زبائنك عني؟.. حتي الكلاب أصبحت تطمع في جسمي، إما قلة الأدب، وإما: "اذهبي لحالك يا بنت".

تشيح بوجهها بعيدا عني، وتمضي وهي تسحق بصقتها:

ـــ "الواطي".

تمثيلـــيات متكررة؛ تغيب أياما ثم تعود من تلقاء نفسها وتطلب الشغل:

ـــــ أحتاج مصروفات للبنت. المدرسة إنجليزي، ومصروفاتها كثيرة.

***

سألتها عن اسم البنت، فتعجبت:

ـــ ياه؛ بعد كل هذه السنين تذكرت أن تسألني؟

نـــسيت الـــسؤال، لكـــنها جاوبتي بعد أيام وأنا أعود بها لشقة "المهندسين":

ـــــ نـــور، اســـم البنت نور. عمرها الآن تسع سنوات. تقرأ المجـــلات وتكلمنـــي بالإنجليزية: "ثانك يو يا ماما.. هاو آر يو يا ماما"، حلاوتها.

وعادت للنكد:

ـــــ أما اسم أبيها فأنت تعرفه أكثر مني، أنت الذي اخترعته؛ "السيد سيد"، اسم لا معني له، ولا يساوي ثلاثة جنيهات، وأنا دفعت فيه ثلاثة آلاف. هل تريد أن تعرف شيئا آخر؟

ماذا أريد أن أعرف؟

لم أر ابنتها حتي الآن، ولا أعرف أين تتركها عندما تغيب عن البـــيت، ولا أدري لمـــاذا تـــبالغ فـــي إخفاء عنوانها بهذه الطريقة المـــريبة، لكننـــي لا أريد أن أعرف شيئا، هي مجرد ملاحظات لا أشغل نفسي بها.

تمثيلـــياتها وحكاياتها كثيرة، وقد تكون مجرد أكاذيب وأوهام. أنـــا مشغول عن كل تلك التفاهات، أحلم بأرنبي الأول في صمْت. ولا أطلـــع أحـــدا علـــي أســـرار أعمالي. أقف أحيانا أمام شباكي المستدير، وأتأمل نفسي في الهالة المقدسة بملامحي الأرنبية:

ـــ حبيب باشا الأفندي .

***

رصيدي في البنك والعقود باسم آخر: "حبيب الله حسن شحاتة الدّكـــر". لا وجود لاسم حمروش في أوراقي الرسمية. أشك أحيانا في وجوده لولا تخاريف عمِّي.

زرت عمِّـــي بعد غياب طويل؛ سنوات. لا أدري بالضبط ما الذي دفعني لذلك، ربما ذكرني به اسم حمروش الغائب في أوراقي الرسمية، أريد أن أسمع عنه.

لم أكن واثقا من وجوده.

وجدتـــه فـــي مكانـــه، كما هو. كل شئ حوله تغير إلا غرفته الـــصغيرة. أزيلت بيوت وقامت مكانها عمارات حديثة. حتي البيت الـــذي كـــان يلتصق بغرفته اختفي. تغيّر المكان؛ ورش ودكاكين، وباعة علي الأرصفة. لكن كل عمليات الهدم والبناء تجنبت غرفته العجيـــبة، ظلت في مكانها متفردة وسط المشهد، كأن الجميع كانوا حريصين علي استمرار وجوده.

كان نائما في جلسته كعادته، والغبار يكسو شعر رأسه ولحيته. نقـــرت جمجمـــته بإصبعي، وأسمعته صرير الكرة الأرضية، ففتح عينيه، بدتا كجرحين يهمان بالالتئام:

ـــ من أنت؟

ـــ أنا حبيب الله الذّكر، ابن أخيك، هل نسيتني؟!

تحسَّسَني، واطمأن:

ــ نعم؛ أنت "الذّكر"، تشبهه.

ذكرنـــي بأننا من سلالة حمروش؛ أشهر من جلس علي مقهي "الذّكر"، وقال:

ـــــ المقهـــي كان هنا، وكل الدنيا ابتدأت من هنا. وجدّنا كان صاحب الأريكة العالية. إذا قعد؛ دكة لباسة ترباس علي باب قلعة، وإن نهـــض للـــوعد؛ يرف طرف الشال الحريري علي كتفه، كأنه راية السلطنة. تشهق وراءه العيون.

فـــي الـــشال ورود بعـــيون، سهرتْ عليها الإبر ليالي طويلة تطـــرزها، لكل عين شكل، ولكل نظرة اتجاه، والورود ألوان، وكل لـــون مـــن أولـــه لآخره؛ الأحمر لآخر حمرته، الأخضر من أول الإخضرار.

وكان.. وكان..

لكن بعد ليلة الجنية، تاه جدنا حمروش.

***

يحكي عمِّي عن ليلة طلوع الجنية كأنه شاهد كل شئ:

ـــــ جـــدك حمروش لم ير الجنية بعينيه، لكنها أحس بها في نفـــسه، كان نائما يتقلب بين الأعتاب عريانا، وما علي جسمه غير العمامة وأوراق شجر نثرها نسيم الليل، وتحت سرته حمامة متعبة،

فردت جناحيها ونامت بين فخذيه.

أحس بحضورها هالة تتفتح فوق رأسه، ففتح عينيه في الحلم، وكلمها وكلمته؛ هو نائم، وهي صاحية.

تقلبت في الهالة كل وجوه النساء التي رآها، ومع اختفاء آخر لقطة كلمته من الهالة الفارغة:

ــ كانت هذه آخر الليالي بيننا.

ناداها وتاه في الأسماء:

ــ يا سميحة .. يا مديحة.. يا صبيحة..

يــنادي والهالــة الفارغة تتسع فوق رأسه. ظلت تتسع وتتسع حتــي أطــل منها الفجر وانكشفت الدنيا، وترددت أخلاط التسابيح وصيحات الديكة في أرجاء السماوات. قام وفي شفتيه بقايا نداء:

ــ يا هي..

من ذلك اليوم تاه. رمي صرّة هدومه خلفه، ودار في الشوارع والأســواق وما علي جسمه غير العمامة والشال الحريري. يبحث عن الوجه الذي لم ينكشف له، يقلب نظراته في كل امرأة تصادفه، ويسألها:

ــ هل أنت هي؟

تــضحك النــسوان من عريه، وتفر الوجوه من طريقه، وهو يحجل خلفهن وينادي:

ـ ياهي..

بعد الغروب يسمع صوتها يناديه:

ـ يا حمروش..

فـي الـنداء ضحكة تتقلب في نسيم الليل. تفر أمامه من نسمة إلي نسمة، وتُدحْرِجه من حال إلي حال. يفرح وهو يتعثر في عتمة الأزقة، ويلهث وراء الصوت:

ـ ياهي..

***

زحفـت عليـنا العـتمة، وعمِّي لايزال يحكي عن جدنا الذي انـصرف عما تراه عيناه، وشغل نفسه بما لا يدركه بصره؛ الوجه المستحيل، الجنية.

تـركته يحكـي وانـصرفت. كنت أسمع خلفي صرير الكرة الأرضية وهي تدور علي إيقاع صوته الرتيب.

***

وضـعتنى تخاريـف عمِّيفى حالة غريبة. تمشيت طويلا دون هدف، وأنا أفكر فيما سمعت.

لا أفهـم معنى أن تهب حياتك لفكرة، تظل تطاردها وتطاردك حتى يضيع عمرك. أنا أتشبث بنفسي، أتمسك بتلك الفرصة النادرة؛ الجسد.

أمـــارس تمرينـــى السرى وأنا أتجول فى الخان، أنبض بقوة لأستجمع نفسي. أتأهب لليلة ساخنة، وأذنى تبحث عن صوت نازك فى الزحام.

شـــغلتنى أفكارى عن مواعيد مهمة، وكاد يفوتنى أداء الواجب للحاج حسين.

***

ماتـــت ماريـــا اليونانـــية، وعـــرفت الخبر متأخرا من عبده القهوجي.

شـــربت قهوتـــى علـــى عجل، وسارعت إلى مجلس العزاء. لاحظت أن الحاج حسين لم يبخل على أرملة أبيه بشئ؛ أقام سرادقا فخما، واستأجر مقرئا إذاعيا معروفا، ودفع له الآلاف.

وصـــلت فـــى وقـــت مناســـب لتسجيل حضوري. كان كبير الفراشين يذيع قائمة بأرقام تليفونات المقرئ المشهور، والشيخ يعدل عمامته ويتأهب لتلاوة "الربع" الأخير.

لـــم أنتبه للمفارقة إلا بعد أن انتهى المقرئ من التلاوة، وطلب مـــن الحضور قراءة الفاتحة لروح الميتة. بدا كل شئ عاديا، لكننى لمحت الحاج حسين يرسم علامة الصليب على صدره بسرعة، قبل أن يبسط يديه ليقرأ الفاتحة.

لا يهمنـــى الموضـــوع من أساسه، لكن الموقف لفت نظري.

سـألت الحاج حسين على استحياء، وأنا أصحبه إلى بيته بعد انتهاء الطقوس، فقال:

ـــ المرحومة ماتت على دينها، لكننى أقمت العزاء بالطريقة التى أعرفها. خالقنا يتقبل دعواتنا أيا كانت لغاتنا وأدياننا. هى أيضا كانـت ترسم علامة الصليب وتقرأ الفاتحة وتطلب الرحمة لموتانا، وكنا نشكرها لذلك. ألا تتذكر يوم عرفت بموت أبيك؟

فاجأنى أيضا بأنه دفنها فى مقبرة عائلته المسلمة، وقال:

ـــ الـروح تصعد لربها بدينها وأعمالها، أما الجسد فهو من تراب، وأى تراب يلمه. الأديان للبشر أما الأرض فواحدة، لا توجد أرض مسلمة وأخرى نصرانية، الأرض على دين خالقها.

أظن أن الحاج حسين تصرف على هذا النحو من باب السهو، ولـم يكن لماريا أصدقاء فينبهوه إلى سهوه؛ كلامه مجرد تبرير. لم أتطرق للمسألة الأخري، قدرت أن رسمه للصليب كان إيماءة طيبة لروح ماريا، مجرد إيماءة.

***

أصر الحاج حسين على أن أتناول عشائى فى بيته.

أمام البيت وليمة كبيرة بلحم عجل ذُبِح فى الصباح تحت نعش ماريـا. دعانـى الحـاج إلى داخل البيت بعيدا عن وليمة الفقراء وعابرى السبيل، وخصنى بجزء كبير من فخذ العجل.

جلـــس جنبى يحدثنى عن حزنه، ويتأمل أمور الحياة والموت. الحقيقة كنت مشغولا؛ أمضغ، وأنبض بقوة. أضخ أفكارى فى اتجاه ليلة ساخنة.

ربما ضجرْتُ من حديثه فقلت:

ـــــ لمـــاذا تحدثنـــى عن الموت؟!.. حدثنى عن تلك الفرصة النادرة؛ الحياة.

تراجع برأسه إلى الخلف، وضاقت أقواس وجهه:

ـــــ لا زلنا فى ليلة العزاء، فعن أى شئ أحدثك؟.. هل أحدثك عن الدولارات، أم عن الأراضي، أم النساء؟

تنبهت لخطأي، فوثبت قرب كتفيه معتذرا:

ـــ سامحني، كنت أريد أن أُخفف عنك، أن أُلهيك عن حزنك.

صـــالحته بالكلام، وسحبته فى حديث طويل عن علاقته بأبي. كـــنت حريصا على إرضائه، لكن الحديث تشعب بنا. وجدت نفسى أحدثه عن الفرص الذهبية فى العقارات، واسم أبو سريع الغرباوى الذى يدوى كالطبل فى عالم الأعمال.

نفـــر الحـــاج حسين من الاسم. هو لا يعرف الرجل شخصيا، لكنه يسمع من أصحابه. انتقده بحدة:

ـــــ الغـــرباوى يسحب فلوس التجار للمضاربة فى الأراضي، يغـــريهم بالـــربح السريع فيهملون تجارتهم ويجرون وراء أرانب

جهنم. هو نفسه أهمل المصنع الذى ورثه عن أبيه، أغلقه تقريبا.

***

يـــرفض الحـــاج حسين الإتجار بالأراضي، يكره فكرة تملك الأرض أساســـا، ويكـــاد يـــصل بكلامه إلى درجة التحريم. ويقول دائما:

ـــ الأرض ملك لخالقها.

ـــ لكنها تجارة حلال، وربحها كبير هذه الأيام.

ـــ أساس التجارة أن تُقرِّب البعيد، تشترى من مكان وتبيع فى مكـــان، تقـــرِّب الشئ لمن يطلبه. أما ما يحدث فى الأراضى هذه الأيام فهو مجرد ألاعيب، تبعد القريب وتعطل المصالح، ولا بركة فى مكاسبها.

وضرب لى مثلا:

ـــ تشترى بعشرة، وتبيع بعشرين: وبعدها يقفز السعر إلى خمسين، مائة، ثلاثمائة، ألف. وعلى طول هذا الشوط تظل الأرض خالـــية، لا يد هدمت، ولا يد بنت، تأمل ماذا فعلت بمن يحتاج هذه الأرض فعلا للسكن أو للعمل؛ أنت باعدت بينه وبينها، طوّلت عليه الوقت، ثم أرهقته بزيادة السعر.

ـــ لكنك تملك بيتا ومحلا.

ـــ شراء بيت للسكن أو محل للعمل شئ آخر، السكن والمحل

من لوازم حياتنا، ضرورة.

ــ كلامك يذكرنى بالشعار القديم: "الأرض لمن يزرعها".

ونبهته:

ــ زمن الشعارات انتهى يا حاج.

التفت إلى بانتباه وعصرنى بأقواس وجهه:

ــ أبوك كان حلاقا؛ أليس كذلك؟

فاجأنى اتجاه الكلام، وهو عاجلنى قبل أن أرد:

ــ صنْعة الحلاق أن يقص الشعر أن يهذبه. لكنك لم تتعلم شيئا من أبيك.

احترت فى فهم المعني، وهو كان قاسيا:

ــ هذب كلامك يا حبيب أفندى عندما تكلم عمك الحاج حسين، قص من لسانك ما لا يصح أن يقال، الكلام أيضا صنعة وذوق.

أعــرف كــيف أعتذر بشكل يرضيه، فعلت ذلك وانصرفت. الحقيقة؛ كنت ضجرا من صحبته، أرسم ليلتى فى اتجاه آخر.

كــان الحــاج حــسين فى النهاية رجلاً من رجال ذلك الزمان القديم، زمن "سى كلام"، أبعد سماواته أن يعد الفلوس بالآلاف، وأن يــصادق الموظفــين الكبار. أنا أحلق الآن فى سماوات لا تطولها أحلامه.

***

علمنـــى أبـــو سريع الغرباوى لغة الأرانب، وعرفنى برجال كآلهـــة الأســـاطير، يقبعون خلف الأستار، ويصرفون أمور الكون بالتليفون:

ـــــ آلو ، سيحضر إليك حبيب بك الأفندي، دعه يختار المحل الـــذى يـــريد. اكتب العقد وسلمه المحل فى نفس اليوم، وبمحضر رسمي، مفهوم؟

دفعت، وفزت بالتوصية الذهبية. سأمتلك محلا فى أبرز منطقة بالخان، وبثمن بخس. المحل تحت الحراسة، قيَّمه الخبير الحكومى بعشرين ألف جنيه، وأنا دفعت فوقها ثلاثين ألفا لأختطفه فى الخفاء، فرصة نادرة.

موعْدى غداً.

***

الآن يـــشغلنى شـــئ آخـــر، أبحث عن نازك برائحة شهوتها الفواحة.

لـــم أســـتطع الانتظار طويلاً فصرفت أفكارى عنها، واتصلت بمـــوزة أكثـــر من مرة. وجدت تليفونها مشغولاً، فخمنت أنها فى البـــيت، وقـــدرت أنها وحيدة تبث مللها فى مكالمات طويلة. ذهبت إليها.

فوجـــئت بنازك تفتح الباب، هى وجمت وأنا تلعثمت. أخبرتها

أننى كنت أبحث عنها طول اليوم، فسخرت مني:

ــ وأخيرا وجدتني؟؟

ثم فردت ذراعها فى اتجاه غرفة النوم:

ـــــ تفــضل؛ "الموزة" فى انتظارك. نتفتها فى أول الليل، لم أكن أعرف أننى أجهزها لك.

كــان وجههــا قاســيا يتشكل بأكثر من صورة، لكننى تفاديت الإحــساس بها، أهملتها. لا يليق بى أن أتورط فى جدال معها. فى النهاية ارتحت للموقف، يجب أن تفهم حقيقة وضعها.

اســتقبلتنى مــوزة بفرح وهى لاتزال معلقة بسماعة التليفون، كانت تتحدث عن آخر قصائدها. خمنت من لهجتها أنها تحادث فايز ناصف:

ــ باى باى يا أستاذي.

أنهت المكالمة، وقالت لي:

ـــــ أتخــيل الخــيالات، وتحْدث؛ أندهش جداً. أختبر الأمر، ويتكــرر. قــد تمر فترات تشوش لكن فى النهاية يحدث ما تخيلته، أشــاهده بعيني. ماذا أقول فى ذلك؟.. هل تصدق أننى كنت أتوقع زيارتك الليلة رغم أنك لم تفعلها أبدا بدون موعد؟

وناولتنى ورقة:

ــ اقرأ القصيدة. سأغير ملابسى بسرعة، وأعود لأسمع رأيك.

***

كانت القصيدة من أربعة سطور:

ـــ عين حبيبى بعثرتني

أخلاطا من الحنطة والفول البازلاء

تركتنى للديكة

تنقر شهوتى فى عراء الشارع.

أســـتطيع أن افهـــم المعانى رغم غرابة المفردات والتراكيب، لكننى لم أتوسع فى التعليق، أبديت إعجابى باقتضاب مقتبسا تعبيرا غامضا سمعته ذات مساء بعيد:

ـــ أجمل ما فيها هو تلك "اللغة الجديدة".

ـــ هذا ما يقوله الأستاذ فائز دائما عن أشعاري.

لـــم تكتف موزة بتعليقي؛ قرأت القصيدة بصوت عال، وسألت نازك:

ـــ ماذا تفهمين من هذا الكلام؟

ـــ فيه وجع، لكن بماذا تفيد الشكوى من المكتوب؟!

ـــ وما المكتوب يا نازك؟

حاولـــت أن تـــشرح فكـــرتها عن المكتوب. كانت أقرب إلى القانـــون الطبيعـــى الغريزي، مضافاً إليه عوامل الوراثة والوضع الاجتماعي، كل ذلك يجعل السلوك إجباريا.

استعجلت الشرح لأنهى تلك الثرثرة، وقلت لموزة:

ــ كأنها تقصد "الجينات".

كانت زلة لسان مني، حماقة، وردت الجاهلة:

ـــ نعم؛ هو شئ مثل هذه الجنيات، أمي كانت تحدثني عنها. تسكنك وتصرفك عما تريد أنت، وتُسَخِّرك لما تريد هي. نعم جنيات.

نصحت نازك أن تنصرف قبل أن يتأخر الوقت، فذكرتني ببرود:

ــ ألم تخبرني أنك كنت تبحث عني؟

لاحظت موزة ضجري بنازك، فكررت النصيحة، وقالت لها:

ــ لم أعد أريدك في شئ، لفي لي سيجارتين وانصرفي.

لفَّت، وانصرفت. لم تستطع أن تخفي غضبها، شتمتني وهي تغلق الباب:

ـــ لم أنتبه لنصيحة أمي، كانت تحذرني دائما من "الواطي"، وتقول لي: "دخوله مكر، وخروجه غدر".

تغابيتُ؛ سألتُ موزة عما كانت تقصد، فقالت:

ـــ أظنها تخصني بالكلام، دائما تحدثني عن ذلك "الواطي" الذي يظهر في فنجاني، تصفه كما تراه، وكما أعرفه بالضبط. هذه المرأة مدهشة.

***

صارحتنى موزة فى تلك الليلة بمشكلتها. قالت إن الرجل الذى تحبه جبان:

ـــ يحبني؛ أنا متأكدة. لكنه يعتبرنى شيئا محرما، مقدسا إلى درجـــة التحريم. يخشى أن يفتضح أمره، فيعاقبه أهلى على جرأته، ويفقد منصبه. لا قيمة له دون رعاية أبى وأخوتي.

جـــده وأبـــوه كانا من عبيد الغوص على مراكب عائلتي. أبوه غواص فتك به سمك "القرش" فى شبابه، وجده "نهّام" يرافق مراكب الغـــوص بالغـــناء؛ عمَّر الجد طويلا، وظل طول حياته فى رعاية أهلي.

كـــان أبى يُقرِّب الجد ويرعى حفيده، ربما تعويضا له عن ابنه الـــذى مـــات فـــى البحـــر، وربما لأنه يحب سماع أغانى "النهّام" العجـــوز. كان صوت الجد شجيا ومقدسا، يهب من عمق الأزمان، مـــسكونا بأصـــوات البحر ولمعات الأصداف. لازلت أذكر أغانيه البحرية الحزينة فى مجلس أبي.

الـــولد الحفيد كبر، هو حبيبي. رعاه أبى حتى أكمل تعليمه فى الخارج، وعينّه فى منصب كبير.

يحبنى بجنون، لكنه يخاف أن تفلت منه إشارة تفضح حبه لابنة أربابه؛ درتهم المصونة. تسكنه أرواح أسلافه العبيد؛ العبد يعرض

نفــسه للمــوت ليلتقط اللؤلؤة من أعماق البحر، لكنه لا يعتبر نفسه صاحب حق فيها، يخاف أسياده.

مرات تعمَّدتُ أن أشاغله، أن أتصرف معه بليونة تفضحه، أن أحرره من العبد الذى يسكنه. نظرت، ولمست، وتنهدت حتى مللت. ومرة سألته بوضوح: "ماذا تريد مني؟".

انتظرت أن يقول شيئا، لكنه زاغ بنظراته بين رجليه. أنا ثبت عينــى علــيه، حاصرته؛ كلما رفع وجهه وجدنى أنظر إليه. بكي؛ المرة.

يخــشى أن يقترب منى فيغضب أهلي، ويخشى أن يقترب من غيرى فيغضبني. لا تنس أننى أيضا من أسياده.

***

قالــت مــوزة أنهــا تحبه رغم كل شئ. حدثتنى عنه طويلا، وسألتني:

ــ أهو القدر المكتوب داخلنا الذى تتحدث عنه نازك؟

***

ليلة عجيبة.

كانــت مــوزة تغنــى تحتى من أغانى بلادها، وصوتها يشب وينحسر مع تموجات الخدر:

ــ حنِّنْ عليهم.. يا نوخذه حنن عليهم

صَعِب عليهم.. ترى البحر بارد صعب عليهم

تقطَعْ ايديهم.. ترى حبال الغوص تقطع أيديهم

عينه عليهم.. القرش فى الهيرات عينه عليهم

وكان صوت نازك لا يزال يعوى فى الشارع:

ــ يا وعْدي..

لعــنت الــيوم من أوله؛ عمِّي، والحاج حسين، ونازك. ولعنت موزة أيضا؛ رفستها ونمت.

هنأتنـــى نـــازك بالمحل الجديد بطريقتها الخاصة؛ طبّلت على الباب بيدها، وهزت وسطها:

ــ "سلامتها أم حسن.. م العين ومن الحسد".

أول مـــرة أراهـــا بعـــد ليلة موزة، طلبت منها أن تسكت لأن صوتها يذكرنى بصوت عدوية، ويزعجنى مثله، فقالت:

ــ لكنه يعجبني؛ حسّه حلو. الغناء ليس صوتا وإنما إحساس.

ــ لا أحب أغانى الضياع.

ــ غدا تضيع وتحبها، قل: "إن شاء الله".

كانت كارهة وصوتها يقطر مرارة. سألتني:

ــ هل دفعت لك موزة ثمن المحل؟

وعاجلتنى بسؤال آخر:

ـــــ ماذا ستفعل به؟؟.. أظنك ستفتحه صالونا للحلاقة؛ ألم يكن أبوك حلاقا؟

حاقدة، وسافلة أيضا. سألتها بازدراء:

ــ وأنت؛ ماذا كانت صنعة أبيك؟

ــ كان قرداتيا؛ درّب أمى عامين على "نوم العازب"، ومات.

طبلت على الباب طبل القرداتي، وهزت وسطها:

ــ "الليل.. الليل يا ميمون".

ســددت أذنــى عــن كلامها، وتجاهلتها تماما حتى انصرفت. تــشاغلت بمــراجعة مــساحة المحل وفحص توصيلات الإضاءة، وودعتها ببصقة.

غابــت عن الخان طول النهار، وظهرت آخر الليل على عتبة شــقتي. وجــدتها تنتظــر رجوعي، وقد أسندت خدها على خشب الباب، ونامت فى انتظارها الطويل.

ــ ماذا تريدين؟

ــ أتيت لأصالحك. أعرف أنك كرهت كلامي، لكن اعذرني؛ شراؤك المحل فاجأني، وزعلت لأنك أخفيت الأمر عني.

ثم مالت علي، وبدأت اللعب:

ــ إذا كان لا يعجبك نوم القرد العازب؛ طبِّلْ لى أنت، وسأنام لــك نوم البحر للسماء. أذهب بك لآخر الدنيا، وأعيدك لأولها مرة أخري.

أفهم هذا البرنامج؛ هى لا تريد أن تضيع أى فرصة للاستفادة مني، وتحاول الآن أن تدارى حقدها الذى ورطها فى كلام النهار.

عمــوما كانــت لــدى دوافــع خاصة للتغاضى عن سخافات

الصباح.

سألتها عن تعليقات تجار الخان على وضعى الجديد، فقالت إنها لم تسمع أى كلام من أى إنسان، لأنها كانت مشغولة طول النهار باحتفالات أول أيام "عيد ستِّنا"، وأخبرتنى أنها ظلت تصرخ وسط النساء حتى بح صوتها.

لا أفهم معنى الصراخ فى يوم احتفال. سألتها عن ذلك باقتضاب، فقالت:

ـــ عيدها ثلاثة أيام؛ أولها "يوم الدخلة"، وهو يوم البكاء والنواح عليها. وثانيها "يوم الجلوس"، وهو يوم شتم "الواطي". وآخرها الليلة الكبيرة؛ "ليلة الحساب"، وفيها فرحنا.

ولعنت "الواطي":

ـــ منذ جاءه الجاسوس بالخبر صام "الواطي" عن النوم والكلام، وظل شهرا بطوله يدبّر الأمر، وهو قائم على رجليه فى الديوان. مر الملائكة على مجلسه فى الليل، وسمعوه يحدث نفسه بالشر. كتبوا الكلام فى الورق، وسجلوا المواعيد.

أزعجنى إيقاع صوتها، فأغمضتْ عيني، وطلبت منها أن تطفئ النور وتغلق الباب خلفها إذا أدركنى النوم.

استمرت تحكى عن "يوم الدخلة". كان صوتها المبحوح ينخفض طويلا، ثم يرتفع فجأة باسم "الواطي" فيجبرنى على الانتباه.

***

حكت نازك:

ـــــ لـــيلة وقوف "الواطي" خلف الأسوار؛ سمعت "ستِّنا" دقات الطـــبول، فظنَّتْها طبول الفرح والعشق. سهرت تزوِّق نفسها لساعة "الدخلـــة"، فرشت شعرها، وباتت بشوقها تتقلب على نفسها. جلدها بـــساتين وردهـــا، وكل بستان بلد بعطر ولون؛ غير أى عطر وأى لون. وهى تمشى بيدها على جلدها من بلد إلى بلد، وتُسبِّح حسنها؛ فرحانة بنفسها.

فـــوق، ما بين السماء والأرض؛ كانت قوافل الستات تناديها: "تعالى عندنا"، وكان حصانها ينظرها، ويرى أبعد مما تري، فيشب على حافريه ويصهل بحزنه عليها.

"يوم الدخلة"؛ دخل عليها "الواطي" من باب الفتوح بعين ساكتة، كمـــا دخول الموت على القلب الحي. وزحفت جيوشه خلفه من كل الأبـــواب، وفوقها رايات بكل ألوان الشر، لكن "ستِّنا" لم تفهم. هى بنت السماء، وكل ألوان الدنيا فى عيونها ألوان فرح.

رمـــى "الواطـــي" شباكه وصادها حية. ضيق الخناق وجرها بالحبال، وهى وسط خيوط الأسر مذعورة؛ ترفرف لفوق، والحبال تشدها للتراب. وصهيل حصانها الحزين يهب ويشب ما بين السماء والأرض؛ آه يا "ستِّنا".

"الواطي" دار بها على الأبواب، فضحها بالطبل والمزمار. من يومها وفى كل طبلة من وجعها صوت، وفى كل مزمار آه.

***

لم تمكننى نازك من النوم؛ لفَّت ودارت بالكلام، ثم طلبت سلفة خمسمائة جنيه. لم يعجبنى هذا الابتزاز، لكننى فضلت ألا أصدها تماما؛ أعطيتها مائة جنيه، سلفة بشروط محكمة.

ردت الفلوس فى اليوم التالي، لكن إيصال الأمانة لايزال فى خزانتى حتى الآن؛ هى رفضت أن تسترده.

***

أحيانا أتأمل بصمة إصبعها على الورقة، وأغوص فى دواماتها الحلزونية. يأتينى صوتها المستحيل من عمق الدوامة كأنه يأتى من عمق الانفجار الأول، النبض الأول:

ـ ياوعْدي.

***

يومها؛ كنت مشغولا مع العمال بتصميم ديكورات المحل. نزلت نازك من سيارة نصف نقل صغيرة أمام الباب. كان وسط العربة كرسى مفروش بقطيفة حمراء، ترقص فوقه شابة بملابس حمراء أيضا، ووجهها مصبوغ باللون نفسه، وحولها نساء يطبلن ويغنين بحماس:

ـ "شدّى الحيل ياستّنا.. زيدى النار يا ستّنا".

خمَّـنْت أنهـا رتبت نفسها للاحتفال بشرائى للمحل بطريقتها الخاصة، لكن تصرفاتها خالفت ظنوني. دخلت على بزغرودة كأنها نـباح كلب، ثم أخرجت لفة فلوس من جيبها، وعدت عشر ورقات حمراء على راحتي، عشرة بعد عشرة، وقالت:

ـ أشكرك يا بك؛ فلوسك فى يدك.

فهمت قصدها لكننى تغافلت، وسألتها:

ـ من أين لك هذا؟

ـــ وهـل أسـألك نفـس السؤال؟.. عموما هو واحد أعرفه ويعرفنـى عن بعد، طلبت منه أن يسلفنى الخمسمائة جنيه فأعطانى ألفـا، وعرضـت عليه أن يكتب إيصالا فرفض وقال لي: "عيب يا بنت يا نازك".

أخـرجت عـشرة جنيهات أخري، أحرقتها على كفها، وذرت رمادها فى وجهي:

ـ ملعون أبو الفلوس.

لـست بخـيلا، لكننى لا أحب هذه الطريقة فى التعامل. لماذا تعتبر نفسها صاحبة حق فيما أكسبه؟!

ناولـتها الإيـصال فأعادتـه إلى جيبي، وقالت وهى تقفز فى العربة:

ـــــ لا أشغل نفسى بالورق، فاحتفظ به لنفسك. انقعه، واشرب ماءه قبل النوم؛ ربما يشفيك مما أنت فيه.

تجاهلت سفالتها، وسألتها ساخرا:

ـــ إلى أين أنت ذاهبة بهذه الزفة ؟

ـــ ذاهبة مع أخواتى نشد أزر "ستِّنا"، ونغيظ عدونا. الليلة ليلة جلوسه على نارها؛ "الواطي".

وقادت كورس النساء فى العربة المبتعدة:

ـــ "ويلك منها يا واطي.. ويلك منها يا واطي".

تابـــع الناس المشهد ضاحكين لكننى تشاغلت بعملي، صعدت درجـــات الـــسلم النقال بحذر لأحدِّد موضع اللافتة الكهربائية على واجهة المحل، وقلت لعامل الإضاءة:

ـــــ هـــنا؛ فى أعلى نقطة. الأرضية مضيئة والاسم بالأسود؛ "الأفندي".

الحسد طبيعة فى البشر، لا يزعجنى كثيرا.

حتـــى الحـــاج حـــسين لم يستطع أن يخفى مشاعره. اصفرت أقواس وجهه وهو يحدثني، كان يخبئ داخل الكلام كلاما آخر:

ـــــ كـــيف خطَّطْت لشراء المحل بكل هذا الكتمان، ودون أن يشعر أحد من تجار الخان؟!

ـــ لم أخطِّط لشئ، كانت فرصة وانتهزتها.

ـــ هكذا؛ فجأة ؟!

ـــ فجأة، وكان على أن أقبل أو أرفض فى الحال.

ـــــ ومن دلَّك على الفرصة؟.. لابد أنه رُتْبة؛ صاحب "حجاب" وسره كبير.

لم أعطه إجابة واضحة، لكننى وعدته أن أساعده بعلاقاتى إذا احتاج ذلك.

ـــ وبماذا ستشتغل فى تجارتك؟

كررت عليه أننى لم أخطط لشئ، فاقترح على أن أعرض فى المحـــل أزيـــاء رقـــص، ومناديل رأس مطرزة بالخرز والترتر،

وأرجيلات، وعقودا بلاستيكية، وقال:

ــ هى البضائع الرائجة هذه الأيام، وأنت لا خبرة لك بغيرها.

فهمْتُ المعني، لكننى تجاهلت الإهانة. وعدته أن أنفذ نصيحته بالضبط، وأن أضيف اليها سجاجيد وأزياء الصلاة، وقلت:

ــ يعجبنى أنك بدأت تفهم منطق السوق يا حاج.

ــ أنا لا أفهم إلا فى تجارة الأحجار الكريمة، الجواهر، لكننى سأحاول أن أتعلم منك، وأتمنى أن أعجبك أكثر يا حبيب أفندي.

كان يتكلم بعصبية، ولم أسمع منه كلمة "مبروك".

***

أخمِّن ما يدور داخله.

يلاحظ صعودى بحسد، ويغير من علاقاتى الجديدة التى تزيحه للهــامش، وتجعلنـــى أستغنى عن خدماته. أظنه كان يأمل استمرار علاقته الأبوية بى تعويضا عن حرمانه من الذرية.

لــيس من العدل أن يستغلنى فى معالجة عقده النفسية، ولا من الفطْــنة أن يصرَّ على معرفة أسرار أشغالى وعلاقاتي. يجب على أن أعــالج الأمــر بهــدوء، حتى أضع العلاقة فى إطار يرضيني، ودون أن أخسره.

كنت أفسر الأمر فى هذه الحدود، لكن نازك أضافت بعدا آخر حين أخبرتنى أن الحاج حسين هو الذى أعطاها الألف جنيه. كانت

زلة لسان فى جلسة عتاب.

تعجَّبْتُ لهذا التقارب المفاجئ، وخمنت أن بينهما كلاما يخصني. حاولت أن أستدرجها:

ـ كنت أظنك لا تعرفينه عن قرب.

ـ كل أهل السوق يعرفونني، وخصوصا هو. دائما يسأل عني: "كيف أحوالك يا نازك؟.. بخير ياحاج. ألا تحتاجين شيئا يا بنت؟.. شكرا يا حاج".

ـ يسأل عن أحوالك، أم عن أحوالي؟

ـ ما شأنى بك ليسألنى عنك؟!

ـ ولماذا أعطاك الألف جنيه؟!

ـ ذهبت أعزيه فى وفاة أرملة أبيه، فانفتح بيننا حديث الهموم. عرف أننى أحتاج خمسمائة جنيه. ففتح الدرج وناولنى الألف بربطة البنك دون أن أطلب شيئا.

لاعبتها بالكلام:

ـ عموما بقيت لك عنده الفان.

ـ لا أفهم.

ـ بقية الثلاثة التى دفعتِها لشهادة الميلاد.

ـ وما علاقته بالموضوع؟!

ـ هو الذى دبر الأمر كله.

ـ وأنت؛ كم أخذت لنفسك؟

ـــ هـــو أخذ الفلوس كلها، وقال إنه دفعها لشخص ما ليسهل استخراج الشهادة المزورة.

انتبهت نازك للزاوية الأهم فلطمت صدرها:

ـ إذن فهو يعرف حكاية ابنتي؟

***

فكّرتُ؛ لماذا يتودد لها الحاج حسين؟!

قـــد يكـــون الأمر مفهوما فيما يتعلق بنازك، أما موقف الحاج حسين فلُغْز. بالتأكيد هناك مصالح ما، لكننى لا أستطيع أن أحددها بالضبط.

عمـــوما لا أتعجل الفهم، لن تذهب الأمور إلى أبعد من الكلام؛ مجرد كلام.

***

فـــى عالمى الجديد نساء غير نازك، وهى الأدنى بالتأكيد. من تكون هى جنب موزة أو وداد قروى مثلا؟!

لـــم أحس أبدا أن لها أهمية فى حياتي، لكننى أدخرها لأسباب ثانـــوية، أهمهـــا ذلـــك الإلحاح الغريزى الذى يداهم أى رجل فلا يستطيع له دفعا، شوقه المفاجئ لتلك الرائحة.

أستطيع أن أسيطر على نفسى بالتأكيد، لكن ذلك قد يسبب قدرا

ولــو يــسيرا من التوتر، يجعلنى لا أركِّز فى أعمالي، أو أتصرف بعاطفية وأخلط بين الأمور. نازك تحلها ببساطة.

بالتأكيد عندى أسباب أخري، لكن ذلك قد يكون لبَّ الموضوع.

عمــوما؛ لا يقلقنى الأمر، فنازك لن تذهب بعيدا عني؛ أليست هى التى تنادينى دائما: "يا وعْدي".

وداد قـروى حكايـة مخـتلفة، امرأة من عالم آخر؛ الأضواء والثقافة والأناقة.

تعـرَّفْت علـيها بالـصدفة. رأيتها أكثر من مرة على مقهى "البستان"، ببنطلون جينز وحقيبة من الخيش. أُعْجَب كثيرا بتماسكها بعد قضية الشرائط التى أطاحت بها من التليفزيون.

كـنت أراهـا دائمـا فى انتظار طويل، تشرب القهوة وحدها وتـدخن، حتـى يقطـع وحدتها شاب صغير. كل مرة وجه جديد، تـتأبطه وتمـضى به إلى أحد المطاعم القريبة على مرمى البصر. أخمن الآن أنهم كانوا صحفيين صغارا يعدونها بنشر أخبارها.

فـى ذلـك الـيوم كانت فى كامل أناقتها كأنها على موعد مع الكاميرا من جديد؛ فستان أزرق، وقلادة من حجر القمر.

تـتقلَّب فى بياض الحجر نتف من ألوان السماء، فتضفى على وجهها لمحة حالمة. هى مازالت تحتفظ بمسحة جمال، وتحافظ على تلـك اللكـنة الطفولـية، والابتسامة الجذابة التى تربعت بها على الشاشة الصغيرة طويلا.

رأيتها جالسة مع زميلى القديم فايز ناصف.

***

تـــوثقت علاقتى مع فايز بعد لقاء الصدْفة فى بيت موزة. أراه على المقهى أحيانا، وزُرْته فى المجلة عدة مرات. أعطانى فى كل مـــرة نسخة من آخر عدد من مجلته، وأهدانى ديوانه الوحيد الذى أعاد طباعته على نفقته الخاصة أكثر من مرة.

كـــان شـــاعرا واعدا أيام الدراسة، لكنه بدَّد نفسه وتحول إلى "أســـتاذ" مـــتجول على المقاهي. تجاهله النقاد فانهمك فى شرح ما يكتبه، والتعليق الشفاهى على ما يكتبه غيره.

يعمل مستشارا لاحدى المجلات الفنية الخاصة. خلطة إعلانات وأخـــبار حفـــلات، مـــع مقالات وجدانية خفيفة لكتاب مغمورين، وأبـــواب ثابتة لمشاكل الحب والجنس والجريمة، وزاوية للراغبين فـــى الـــزواج، وصـــور بحجم صفحة لنجوم ورجال أعمال وبنات جميلات فى أوضاع حرجة.

يحتاجنـــى فايز دائما لخدمات صغيرة؛ شقة مفروشة، أو هدايا من الخان لتسهيل مصالحه. لهذا السبب تكررت لقاءاتنا واتصالاتنا.

أزوره فـــى مكتـــبه الفخـــم. يستمهلنى دقائق يكتب فيها مقال صـــاحب المجلة، مجرد خواطر عاطفية سهلة. يكتب المقال أمامى بسرعة وبصوت عال، ويسلمه على عجل وبشكل استعراضي:

ـ المقال الافتتاحي.

ألاحـــظ أنه لا يمارس أى عمل حقيقى آخر فى المجلة. ويقول إنـــه يتولى ترتيب صفقات الإعلانات، وأن هذا أفضل له وللمجلة. أخمـــن مـــن جانبـــى أنه يستغل موقعه لتعزيز صموده فى الوسط الثقافي.

نجح فى فرض اسمه كمؤلف أغان فى مسلسل إذاعى مشهور، ومـــازال ينتظر الفرصة التالية. ويظهر اسمه ضمن فريق الإعداد فى برنامج تليفزيونى خفيف.

المفترض أنه أكثر جدية من ذلك.

يـــتعامل مـــع نفـــسه كأستاذ كبير، لكنه صار فى النهاية عبثيا مـــسلِّيا، يـــدخن البانجو فى أى مكان، ويهزل أغلب الوقت. وحين يتحول إلى الجد يغلق الأبواب وينتقد الآخرين بمرارة. ينتقد الجميع وكل شئ، حتى نفسه.

كان أستاذا بحق، لكن بنكهة الفشل.

***

قدمنى فايز ناصف إلى وداد قروى باعتبارى رجلا نادرا:

ـــــ برنامج فريد لا توجد منه نسخة أخري؛ يعرف كل شئ، ولا يشغل نفسه بأى شئ.

سألتْني:

ــ أهو الزهد؟

ــ لا أظن. ربما هو الحرص على نفسي، ربما هى الحرية.

ــ كلامك عميق.

أخبرها فايز أننى أبعد الناس عن الزهد وقال:

ــ هو حريص على الدنيا، وقادر عليها أيضا، أما ما لا يشْغل نفسه به فهو الأفكار؛ الثقافة والسياسة، وكل هذا الكلام الفارغ الذى ضيَّعْنا فيه أعمارنا.

قــدَّرْتُ أن فايز يسوق الحديث فى اتجاه غير مناسب، فرجعت بها للكلام الأول:

ــ لست زاهدا، ولكن جدِّى كان من كبار الزاهدين، وفريد فى مذهبه.

ــ وما مذهبه؟

ــ الزهد فى كل حلال.

ــ وكيف كان يعيش؟

ــ زَهدَ فى الحلال، لكن ما أكثر الحرام.

فهمــت وداد المفارقة فابتسمت بذكاء ولم تعلق، فايز هو الذى علق:

ــ الدنيا كلها تحب الحرام، وأنا وأنت أول الزاهدين على هذا الطريق.

***

هى كانت غنية عن التعريف.

أطريْت على عقدها، فتلمسته بأطراف أصابعها، وقالت:

ــ أتذكر أننى رأيتك هنا عدة مرات ولاحظت أنك تنظر نحوى كثيرا.

شــرحت لهــا أن نجمة مثلها لابد أن تلفت أنظار كل من فى المكان، فقالت:

ــ هذه مشكلتى دائما.

وأعادتنى لموضوع العقد:

ــ الله عليك، كلَّك ذوق.

حدثــتها عــن خواص حجر القمر؛ الإلهام والخيال والعاطفية، وأخبــرتها إنــه يتألق فى المساء مع ضوء القمر. أعطتنى وجهها وابتسامتها:

ــ اسمك حبيب؟

ــ حبيب الله الأفندي.

ــ الله عليك.. اسمك لطيف.

وعادت للعقد.

ــ هل يجلب هذا الحجر الحظ؟

ـــ لا أعــرف شيئا عن علاقته بالحظ، علاقته أكبر بالخيال

والـــسِّحْر، وهـــناك اعتقاد بأن من يضعه فى فمه وينظر إلى القمر يوهب القدرة على التنبؤ.

ـــــ برافو، واضح أن ثقافتك واسعة، وتهتم بأشياء كثيرة، ماذا تعمل بالضبط؟

ـــ درست الفيزياء والفلك فى كلية العلوم، لكننى أعمل مرشدا سياحيا.

ـــ فى أى شركة؟

ـــ أنا شركة بمفردي، أعمل وحدى وأختار زبائنى بنفسي.

ـــ الله عليك يا ولد، حرية كاملة.

وعادت للموضوع.

ـــ وما الحجر الذى يجلب الحظ؟

أحجـــار كثيـــرة أشْـــهرها الفيروز، لكن لكل برج حجر مميز يجلب الحظ لمواليده.

ـــ وتعرف عن الأبراج أيضا، الله عليك. أنا برج "العذراء".

لاحظْت أنها تميل إلى المبالغة، وأنها تقطع سياق الكلام بأسئلة فـــرعية ثـــم تعـــود للموضوع، ربما تعطى نفسها فرصة لترتيب الأفكار. مهارة خاصة فى إدارة الحديث تليق بمذيعة سابقة.

كان لقاؤنا لطيفا. شكرت فايز ناصف وأنا أستعير لغة وداد:

ـــ الله عليك، اليوم عرَّفْتنى بأجمل نجمة.

نهضت وداد، شبكتني في يدها، وانطلقت بي إلى أقرب مطعم.

ــ أحتاجك لأمر مهم.

***

تصرفت معي بكرم ملحوظ، وسألتني:

ــ هل تظنه جادا؟

ــ من؟

ــ صديقك فايز، ألم يحدثك عن شئ يخصني؟

أخبرتني أنه عرض عليها دورا في فيلم شبابي يتولى كتابة أغانيه، وأنها مترددة:

ــ لا أعرف حجم دوري، ولا قصة الفيلم، يجب أن يكون شيئا يليق بمكانتي.

ـــ مشاركتك في الفيلم مكسب كبير لهم؛ اسم رنان، وداد قروي، يكفي ذلك.

ـــ الله عليك، واضح أنك كنت تتابع برامجي، أي برنامج أعجبك أكثر؟

ــ "وقفة مع مسئول"، كنت أترقب مواعيده.

وعادت لموضوع الفيلم:

ــ من حقِّي أن أفرض شروطي، أليس كذلك.

ـــ بالتأكيد، لكن لا تتشددي كثيرا فالفيلم فرصة لك، رد

اعتبار، وعودة قوية للأضواء.

لم أقصد التلميح لفضيحة الأشرطة، لكن يبدو أنها فهمت الكلام فى هذا الاتجاه، فقالت:

ـــــ كأنك تقرأ ما يدور فى رأسي، أنت لمَّاح وصريح، تعرف كيف تقول دون أن تجرح. هل أنت متزوج؟.

ـــ الحرية، ثم الحرية.

ـــ فيلسوف يا ولد، فى صحة الحرية.

ـــ أكتفى بنفسي، أتحسس وجودي، ولا يشغلنى شئ آخر.

ـــ شاعر أيضا، الله عليك.

وعادت للموضوع:

ـــــ المـــشكلة أنـــه لم يقدِّم لى أى تفاصيل عن الفيلم ولا عن المخـــرج ولا المنتج ولا القصة ولا الدور. هل تظن أن له قصدا آخر، أعنى فايز؛ هل يحبنى مثلا؟

***

هى سكرت، وأنا شربت باحتراس. أفضل ذلك دائما.

حديث حميم ثم:

ـــ باى .. باي.

سجلت بيانات وداد على الكمبيوتر. معلومات وملاحظات أرى أنها مهمة؛ أبرز العلامات، لوازم الكلام، برج الحظ، لون الفستان، نوع الإكسسوارات، أهم النقاط فى حديثنا.

تساعدنى المعلومات على تنظيم شغلي، وتؤهلنى لأى لقاء عاجل.

يسعد الناس كثيرا أن تتذكر تفاصيلهم، والنساء بالأخص. الأرشيف الإلكترونى يذكرنى بالمفاتيح، بنظرة سريعة أكون جاهزا للشغل.

كنت أحفظ مثل تلك المعلومات دائما فى نوتة صغيرة فى جيبى الخلفي، لكننى دخلت زمن الكمبيوتر مبكرا بهدية سخية من موزة. كان الجهاز ضمن هدايا دعائية لإنتاج إحدى شركات أخيها الأصغر، وهى خصَّتْنى بجهاز طلبته بالتليفون من الموزع المحلي.

***

ـ شكرا موزة.

دائما أسعد بهداياها، ولا أعرف بالضبط لماذا تسرف فى ذلك. خدماتى أقل مما تعطيني.

وصلت الهدايا إلى حد سيارة مكيفة. صحيح أننى أصحبها فى

رحلاتهـــا الطويلة ومشاويرها المفاجئة لكن ذلك يتم بشكل متقطع، وأحيانا أهرب؛ لا أرد على التليفون، أو أعتذر، وترد هى ببساطة:

ــ جهز سيارة بالإيجار، مكيفة، وفى الموعد تماما.

المهم أن السيارة ملكى فى النهاية.

لا أفهم سر وضعى المميز عندها، وهى كانت تبرر ذلك بكلام ليس مفهوما تماما:

ــ لست أحسن من حولي، ولا الأسوأ، ولا أكثرهم بريقا، لكنك أنـــت "الـــنمط"، الرمز الكبير. أنت الشارع الواسع، وهم تفريعات صغيرة؛ حواري.

ربما يخصها أمرى لأسباب دراسية، أو بحثية، أو شعرية، أو جنسية. هأ؛ أنا جاهز للشغل .

***

أضع الكمبيوتر على مكتبى فى الصالة.

شـــقتى الـــصغيرة مختلفة الآن تماما. مازلت أحتفظ بها. لماذا أفـــرط فيها وإيجارها مجرد جنيهات قليلة؟!.. فرطت فى دكان أبى زمـــان ونـــدمت، كان مبلغ "خلو الرِّجْل" الذى تقاضيته هزليا، الان الخلو بالآلاف وليس بالمئات.

ليست المسألة مجرد حسابات مالية فقط، فالشقة ليست صغيرة؛ تـــسعون متـــرا تقريبا. وموقعها مميز، فهى قريبة من وسط البلد،

"درب الـصايم" علـى مدخل "باب الشعرية". أصل إلى الخان فى عـشر دقائـق، وإلى وسط البلد فى ثلث الساعة. ثم أن للشقة قيمة رمـزية أخري، فهى نقطة قياس مهمة لطول مشوارى وإنجازاتي؛ من هنا بدأت.

هـل كانـت هذه العبارة عنوان كتاب يحتفظ به أبي؛ "من هنا بدأت.. أو أبدأ.. أو نبدأ.."، لا أتذكر جيدا.

حـولت الشقة من الداخل إلى جناح فندقي، حصن أرستقراطى فى حى شعبي. الأبواب والأرضيات من خشب الأرو ماعدا الحمام، والـردهة الداخلـية التى أستخدمها كمطبخ وغرفة طعام، الجدران بلـون سن الفيل، وشباك صالة الاستقبال المستطيل من "الألوميتال" البني، وعليه ستائر من الكتان الأسباني.

فـى صـدر الصالة أنتريه أمريكى الطراز على شكل زاوية حرف "إل"، يغطِّى جانبا من جدارين. يصلح للجلوس المريح جدا، وللـرقاد فـى كل الأوضاع. مكسوٌ بالكامل بقطيفة انجليزية نبيذية اللـون، وفـى حضنه ثلاث طاولات فرنسية من الزجاج والمعدن المـذهَّب. وفـوق الطـاولات مـنافض سـجائر مـن الكريستال اليوجوسلافي.

أمام الجدار على الضلع الثالث للصالة مكتب من خشب الجوز الباكـستاني، الـذى يتميز لونه عن التركى بخيوط سوداء متباعدة

علـــى الأرضـــية العسلية، معه كرسى أنيق مكسو بجلد بنى عالى الظهـــر، يتحـــرك على عجلات، وله زرّ يعلو وينخفض بالجالس حسب الوضع الذى يناسبه.

فـــى مـــدخل الـــصالة مكتبة صغيرة من خشب الجوز أيضا. يتوسط المكتبة تليفزيون ياباني. وخلف واجهتها الزجاجية المضيئة مـــشغولات من العاج الهندى والفضة التركية، والأبنوس الإفريقي، و"اللاكـــر" الصينى بكل ألوانه. أخفيت كتبى خلف الواجهة السفلية الخشبية، علوم ومعارف عامة وطريفة.

لم أُزْحم صالة الاستقبال بأثاث آخر.

علـــى الحوائط ساعة "كوكو" تشيكية، وثلاث تابلوهات قماشية من فن "الباتيك" الأندونيسي، بنقوش فراشات زاهية الألوان.

نقلت مكان الطعام إلى الردهة الداخلية، مساحتها نحو عشرين متـــرا مربعا. اكتفيت بطاولة طعام صغيرة، خشبية وعلى سطحها مـــربعات من السيراميك الإيطالي. بقية المساحة للمطبخ، خزانات مـــن خـــشب الزان الفنلندى وحوض معدنى انجليزي، مع بوتاجاز وغسالة ملابس أوتوماتيكية من صنع ألمانيا.

الحمّـــام يتـــسع بالكاد للبانيو وحوض الوجه، وتبرق حوائطه بالمرايا والسيراميك.

تفاديـــت الـــزوايا الحـــادة فى غرفة النوم، احتفظت لها بطابع

دائري، سرير مستدير، ودولابان صغيران فى الزاويتين الداخليتين، وبينهما طاولة نصف دائرية تصلح لأغراض مختلفة. على الطاولة راديو أبى القديم؛ الشئ الوحيد الذى احتفظت به، وفوقها مرآة بيضاوية من الزجاج البلجيكي.

وضعت مرآة كبيرة قبالة الشباك الصغير. يحتضن دائرتها إكليل من زخارف الزهور. أتمهل أحيانا أمام الشباك المستدير لأتأمل نفسى فى المرآة وسط الهالة اللامعة:

ـ حبيب بك الأفندي.

***

ـ حبيب بك الأفندي؛ عالم طبيعة وفلك ورجل أعمال.

هكذا قدمنى الغرباوى للمسئول الكبير. تشاغل الرجل بأوراق أمامه، وسألني:

ـ وما علاقة الطبيعة والفلك بصناعة أكياس الزبالة؟!

ـ حماية البيئة.

ـ برافو؛ زاوية بعيدة، لكنها جديدة ومهمة. هكذا يكون العلم فى خدمة المجتمع. ما طلبك؟

ـ المعدات والآلات.

ـ من أين ستستوردها؟

ـ لن أستورد.

ـ ولماذا جئت لي؟!

ـ لأشتريها.

ـــ يمكننى أن أساعدك فى تسهيل إجراءات، أو فى تخفيض رسوم. لكننى لست سمسارا، ولا خبرة لى فى شراء الآلآت.

ـ هى موجودة فى مخازن الجمارك.

ـ اشرح لي.

ـ اشتراها سعيد المهدى قبل أن يسجنوه ويفرضوا "الحراسة" على ممتلكاته، وصدر حكم ببيعها قبل أسبوع.

ـ وكيف عرفْتَ ذلك؟!

ـ كنت أراقب الموقف لدى كل الأطراف، ولمَّا حانت الفرصة لجأْتُ لك.

ـ بكم اشتراها المهدي؟

ـ نصف "أرنب" حسب ماعرفت.

ـ بالتأكيد أكثر، هناك تلاعب فى الفواتير. وأنت بكم تقدرها؟

ـ أشتريها بمائة ألف.

ـ وكم تدفع فوقها؟

ـ كما تحدِّد لي.

ـــ اســمع؛ ستدفع مائتى ألف جنيه للشراء، وفوقها مائة ألف لــي. أنــت الرابح؛ سعر أقل، وشراء فورى بدون مجهود، وبدون

جمارك تقريبا.

ودَّعنى جالسا دون أن ينظر إلى وجهي:

ـــ ادفع الآن خمسين ألفا، وراجعنى بعد شهر حتى أكون قد رتبت كل شئ، مع السلامة.

***

كانـــت هـــذه الـــصفقة الغريبة لحساب المهدى نفسه، صاحب البضاعة أصلا.

الماكيـــنات جديدة وقيمتها أكثر من "أرنب" ، وأثبتتْها الفواتير بنـــصف ملـــيون كأدوات مستعملة، أما جماركها فيمكن أن تتجاوز "الأرنب" أيضا .

كـــان الاتفاق على أن يشتريها الغرباوى لحساب المهدي، فأى ثمن لها لن يصل إلى نصف قيمة الرسوم الجمركية التى كان يمكن أن يدفعها.

تفادى الغرباوى أن يظهر فى الصورة، فقضايا المهدى تتفجر علـــى صـــفحات الجرائد، وعلاقته به معروفة، وظهور اسمه فى الصفقة يقرِّبه من دائرة الخطر.

صدرنى الغرباوى للموقف، ووعدني:

ـــ اللعبة كلها نصف "أرنب"، وما نوفره منه نقتسمه بالنصف، أنا وأنت.

فى البداية تعجبت:

ـــــ لمـــاذا يعـــيد المهدى شراء الآلات وهو الآن فى السجن، ومصنعه وعقاراته تحت الحراسة؟!

ـــــ أقصاها سنة وتنتهى لعبة الحراسة، ماذا يمكنهم أن يفعلوا به؟

***

كـــان الغرباوى سعيدا بالنتيجة، دعانى إلى وليمة مشويات فى مطعم عائم، وقال:

ـــــ وفـــرنا مائتى ألف جنيه، لك مائة ألف، ولى مثلها؛ قسمة عدل.

لم أعلق، ولم أحاول أن أسأله عن الرقم النهائى فى صفقته مع المهدي.

عمـــوما كانـــت اللقمة كلها من نصيبي، فقبل أن يحين الموعد كـــان الغرباوى فى السجن وأملاكه تحت الحراسة. أتممت الصفقة بمفـــردى وبِعْـــت المعدات. لم أكن أعرف بقية حلقات الوصل فى صفقة المهدي، فبعت لأول مشتر.

كسبت أربعمائة ألف بضربة واحدة؛ بووووم.

وكسبت أيضا معرفة المسئول الكبير؛ بوم.. بووم.. بووووم.

لم يفوِّت الحاج حسين الفرصة ليستجوبنى حول الغرباوي.

اســتقبلنى معطَّــرا ومتأنقا ومبتسما كعادته فى الفترة الأخيرة. كــان يعــيش تلــك الأيام حالة رومانسية لا تخفى عن عيون أهل الخــان، يــسميها الــبعض فيما بينهم "فيلم عودة الشباب"، يتابعون اللقطات بشغف، ويحاولون توقع النهايات.

ســمعت، فذهــبت إليه أستطلع الأمر عن قرب، لكنه بادرنى بالحديث حول الغرباوي:

ــ إياك أن تكون تورطت معه فى أى شئ.

ــ مابيننا مجرد صداقة نشأت فى لوكاندة "الأنوار".

ــ صداقة بين من ومن؟!.. أنا أعرفك منذ زمن، وسمعت عن الغــرباوى مــا يكفي. أعرف أيضا أنك اشتريت قطعة أرض عن طريقه.

ـــ حدث ذلك مرة واحدة، وبعتها بسرعة، خفت من المخاطر فهربْتُ.

ــ وماذا بعد ذلك؟!

ـــ لا شئ.

ـــ والمحل؟؟

فـــضلت أن أقول له إن المحل كان الخدمة الوحيدة التى قدمها لى الغرباوي، قصدت ذلك لأنهى الكلام فى الموضوع، وأكدت له:

ـــــ كـــان هذا آخر ما بينى وبين الغرباوي، وبعد ذلك لا شئ، صدِّقْنى لا شئ.

انتهينا من "سين" و"جيم"، وبدأ الحاج حسين النصائح:

ـــــ رغـــم أننـــى لا أرتاح لأحوالك ولا لكلامك أحيانا إلا أن العشرة الطويلة بيننا توجب على أن أنصحك.

أول كلامـــى أن رأســـمال التاجر "سُمْعته"، والسوق ملئ بكل الاحـــتمالات، الحرام موجود، والحلال موجود. حتى داخل الإنسان كـــل الاحتمالات موجودة، فحين يأتيك الزبون يكون داخلك صوتان صـــوت يقول له: "غشّ واسرق"، وصوت آخر يقول: "بِعْ بالحق". الصوتان داخلنا، وفينا كل الاحتمالات، لكن الإنسان فى النهاية هو ما يختاره من داخل نفسه. وعلينا أن نتذكر دائما أن التجارة سُمْعَة.

وكررها بحسم:

ـــ سُمْعَة.

اصطدته بالكلمة التى أفلتت من لسانه:

ـــ لو اهتممنا بمسألة "السُمْعَة" وما يقوله الناس عنا لما ارتحنا؛

لا أنا، ولا أنت.

ــ ماذا تريد أن تقول؟!

ــ لست أنا من يقول، وإنما كل الناس فى الخان.

ــ أَوْضِحْ كلامك.

ــ أقصد حكايتك مع نازك يا حاج.

***

نَفَــر الحــاج حسين منّى حين ذكرْت اسم نازك، كأننى فاجأته بكــشف الــسر، أو كأنه لا يدرك أن الحكاية معروفة. صحيح أن أحــدا من أهل الخان لا يجرؤ على مواجهته بالحديث، لكن العيون تنطق، وغمزات الكلام لا تخفى معانيها.

تشابكت أقواس وجهه وهو يسألنى بحدة:

ــ أهذا كلامك؟

ــ بل كلام الناس، ومن الواجب أن أُبلغك بما يقال.

ـــ لا يهمنى كلام الناس، بل يهمنى أن أعرف ماذا تريد أنت من نازك.

ــ هى التى تحتاجنى دائما.

ــ بعد اليوم لن تحتاجك فى شئ، فابعد عن طريقها.

كان يُنهى الكلام ويطردنى تقريبا. نهضتُ، فاستوقفني:

ـــ تذكّر دائما عندما تكلِّمنى أننى عمك الحاج حسين جوهر،

وأنك "الأفندي".

***

أتذكّر أيضا أنه أول من أطلق على اللقب.

***

بلعْتُ الإهانة وانصرفت.

اعتــرف أننـــى ســعدت بإزعاجــه لأجبره على التوقف عن مــواعظه. تضجرنى تلك المزايدات خاصة عندما أكون متأكدا أنها تُخفى دوافع أخري.

لكننـــى أعتــرف أيضا أننى كنت قلقا من علاقته بنازك، ربما كــنت مــشفقا عليه من صبوات مابعد الستين مع امرأة تقترب من الأربعــين؛ سن الفوران الأخير والأعنف. وهى ليست أى امرأة؛ إنها نازك، بقشعريرة الأفعى التى تسكن جسدها، وبرنامجها الخاص الذى تربك به أى إنسان؛ تقترب فجأة وتبتعد فجأة حسب مصالحها.

غيْــرى جــرَّب هذا البرنامج مرة، أما معى فالعرض مستمر. تقتــرب حتـــى تكاد تزهق أنفاسي، ثم تنقلب فجأة، وتتفادى مجرد الكــلام. أخمن دائما أن خلف إقبالها وانصرافها دوافع عملية، لكنها تغطى ذلك بتقلبات مزاجية:

* أريد أن أخلو بنفسي، أشياء كثيرة تتقلب داخلي.

* مشاكلى كثيرة، ولا أريد أن أثقل على أحد.

حين تقبل تعطى كل شئ حتى يخيل لى أن أنفاسها معلقة بي، تتنفس على إيقاع كلامى ونظراتي، وحين تدير ظهرها تبدو قاسية جـــدا ومتكبّرة. ما يحمينى منها هو أننى أعرف "برنامج" دماغها، قـــرأت "الكتالوج" جيدا، وأحفظ هذه الصفحة عن ظهْر قلب. أتعامل مع حالاتها بلا مبالاة.

عمـــوما علـــى أن أعتـــرف أنها رغم انحطاطها امرأة بنكهة خاصـــة، تخـــتلف عن موزة ووداد، وعن أخريات عرفتهن؛ امرأة بنكهة المطر.

اتّــصلَ بـــى فايز ناصف وأخبرنى أن وداد قروى تسأل عنى بإلحاح:

ــ نسيت أن تعطيك رقم هاتفها، اكتب..

راجعت معلوماتى لأجهز نفسى للمكالمة.

يــسعد الــناس كثيــرا أن تتذكر تفاصيلهم، والنساء بالأخص؛ جنون. الأرشيف الإلكترونى يذكّرنى بالمفاتيح؛ بنظرة سريعة أكون جاهزا للشغل.

راجعــت معلوماتــى على الكمبيوتر، وأعددْت بعض عبارات التذكّر الحميم:

* الله علــيك يا وداد هانم؛ تذكّرتِنى فى الوقت المناسب. طول الوقت وأنا أنتظر أخبار الفيلم.

* أبحــث لــك عــن عِقْد من الفيروز الأصلى يناسب فستانك الأزرق، عقد طويل يغطى المساحة المكشوفة من الصدر.

***

طلبت وداد أن أذهب إليها بسرعة:

ـــــ أريـــد أن أبيع ذهبا، وأعتقد أنك ستفيدنى فى ذلك، اكتب العنوان..

كانت حميمة جدا فى استقبالى كأنها تعرفنى من سنين، قبلات وحضن طويل لامست فيه حلماتها عظام ضلوعي. قالت إنها فرحة بى جدا، وإن ظهورى فى حياتها هو شارة حظ سعيد:

ـــــ فايـــز أبلغنى أن المنتج والمخرج يريدان مقابلتى بسرعة، واضح أن حكاية الفيلم جد.

وسألتني:

ـــ ألم يخبرك فايز؟

ـــ أبدا.

ـــ ستكون معنا. قلت لفايز إنك صديقى وخاتم حظي، وإننى لن أتحـــرك خطـــوة واحدة بدونك. أريدك جنبى لتساعدنى برأيك، هل يضايقك ذلك؟

ـــ بل يُسْعدنى جدا.

ـــــ ولماذا لم يخبرك فايز؟!.. هل تظن أنه يغار منك؟.. ربما لا يكون الأمر حبا حقيقيا وإنما يبحث فى عن ملهمة لشعره.

وسألتني:

ـــ هل قرأت ديوانه؟

شـــرحت لهـــا أننى لا أهتم بقراءة الشعر عموما، ولا أعتبره

معرفة حقيقية. قلت:

ــ ليست فيه معلومات مباشرة مفيدة.

ــ لكنه مشاعر وعواطف.

ـــــ أغلبه اجترار مشاعر؛ مجرد تذكّر، وأنا يهمّنى أن أعيش الحياة لا أن أتذكرها.

ــ مدهش، أفكارك أعمق مما ظننت، الله عليك يا ولد.

وعادت لموضوع الفيلم:

ــ هل تظن أنها خطوة موفقة؟

ــ لن تخسرى شيئا.

ـــــ لكننى سأنفق الكثير، ملابس وماكياج وإكسسوارات، ولا أتوقع أن يعطونى أجرا مجزيا، الجميع يظنوننى غنية.

طلــبت منى فى تلك الليلة أن أبيع بعض قطعها الذهبية لتغطى تكالــيف الفتــرة المقبلة. وأن أشترى لها من الخان عقدا من حجر أخضر اللون، ليناسب الفستان الذى تنوى شراءه:

ـــــ بأقــصى سرعة حتى أستطيع أن أجهز نفسي، لقاؤنا مع المنتج آخر الأسبوع.

وحفّزتني:

ــ عمولتك محفوظة، أعرف أن هذا عملك، والشغل شغل.

لم يتم اللقاء إلا بعد شهر.

***

صـــحبت وداد قروى فى زيارة المنتج، كانت مزهوة بفستانها الأخـــضر الجديد وعقد الملكايت الذى اشتريته لها. تقبلَت اختيارى للعقد بامتنان:

ـــ أُحب الأخضر، وأَتفاءل به.

لكنها أَبْدت ضيقها لتأجيل الموعد:

ـــــ هـــذا التأجيل ضد الفيلم. كان عليهم أن يستفيدوا بحماسى للعمـــل قـــبل أن يبـــرد اندفاعـــى وأدير ظهرى لهم. كدت أنسى الموضوع تماما لولا إلحاح فايز.

تـــم اللقـــاء فـــى بيت المنتج. صالة مؤثثة على طراز عربي؛ أرائك قصيرة تلامس الأرض، وطاولات مزخرفة بالأرابيسك عليها أصنافٌ من الشراب والطعام والكيوف تناسب كل مِزاج.

كـــان فايز جالسا على الشيشة وعلى يمينه المنتج. وسّع لوداد وأجلـــسها بيـــنهما، وقدم لها المخرج والمؤلف والسيناريست وبقية الفريق.

قدمنى للجميع باعتبارى رجل أعمال، ثم أشار إلى وداد:

ـــ ..وطبعا الهانم غنيّة عن التعريف.

تألقـــت وداد فى بداية اللقاء. قادت الحوار مع المنتج بمهارات مذيعة قديرة:

* خورشيد باشا؛ لم أكن أتصور أننى سألتقى برجل مثلك فى يوم من الأيام.

* تفكر بطريقة مبهرة، كأنك تعرف كل شئ.

* اتركنى دقيقة حتى أستوعب هذا الكلام، أفكارك مبهرة جدا، عالية جدا.

* خسارة العمر الذى انقضى قبل أن أعرفك.

واضـــح أنهـــا كانت تراهن عليه، كاد الكلام يصل إلى درجة الغزل الفاضح.

حاولت أن تتفادى طرح موضوع الفيلم، تركت المبادرة فى يد خورشيد. انتظرت طويلا، لكنها اضطرت لسؤاله فى النهاية:

ـــ ما موضوع الفيلم؟

تفجَّر الكلام عن الفيلم من كل الاتجاهات، وتحولت الجلسة إلى مـــا يشبه فسحة بين الحصص فى مدرسة؛ أخلاط أحاديث متشابكة تتجمع حول نكتة:

ـــــ اكـــتب هذا "الإفّيه": المنتج أراد أن يوفر تكاليف الألوان فعمل الفيلم بالأبيض فقط.

ـــ فيلمك بالأسود.

ـــ فيلمك بلا لون.

يكتب المؤلف "الإفّيهات" ويقول له المنتج:

ـ ركّبها فى القصة بمعرفتك.

واضح أن الفيلم بلا عنوان حتى الآن، والمؤلف ينتظر حصيلة النكات ليبدأ كتابة المشاهد، وتصميم القصة، وفايز يقترح.

ـ سأكتب أغنية مرحة تتضمن هذا المعني.

سألَت وداد:

ـ ما هو دورى فى الفيلم بالضبط؟

ـــ لقطة من تليفزيون الأبيض والأسود أيام الستينات، مذيعة تقرأ خبر مصرع "سفّاح الحريم"، والسفّاح يقف خلفها فى الاستوديو.

استحسن خورشيد اقتراح فايز، وقال للمؤلف:

ـ لقطة حلوة ولها مغزى سياسي؛ دبّر لها مكانا فى القصة.

ووعد وداد:

ـ سنضع اسمك فى تترات الفيلم: "ضيفة الشرف وداد قروي".

لم تنطق وداد، لكن بدا من إيماءات يديها وشفتيها أنها غير راضية. تولى فايز الشرح:

ـ هذا مجرد تقديم؛ إعلان عن ظهورك على الشاشة الكبيرة، وفى الفيلم القادم لنا كلام آخر.

حدد خورشيد طريق الكلام:

ـــ لو وافق حبيب باشا على أن يشاركنى فى الإنتاج، أعطيها

دور الـــبطولة فى فيلمى القادم، وأبدأ التصوير من باكر، ويمكن أن يكون الفيلم عن قصة حياتها مثلا.. هاه.. هاه..

***

ـــ هاه.. هاه.. هاه.. هاه..

***

انصرفْتُ مع وداد مبكرا، هى أصرت على ذلك. عاملتنى فى الأسانسير بشكل خاص جدا، حميم. وسألتني:

ـــ كيف تفهم ما حدث؟

ـــ واضح أن فى رأس المنتج فكرة غير التى شرحها فايز.

ـــ أنت فهمْت الموقف يا ولد فلا تكذب، خورشيد لم يكن يفكر فى أى شئ، بل بدا أحيانا كأنه يسخر مني. فايز استخدمنى كقطعة ديكور، فعل ذلك معى عدة مرات.

وذكرتنى بنفسها:

– أنـــا الـــنجمة وداد قـــروي، ظهورى مع أى شخص يشرّفه ويـــسهل أعمالـــه، وهـــو مجـــرد صحفى مغمور. من يعرف فايز ناصف؟!

كانت إضاءة المدخل خافتة جدا لدرجة طمست اللون الأخضر فـــى فستان وعقد وداد، وحوّلت المشهد إلى لقطة بالأبيض والأسود فى فيلم قديم.

كنت أنبض فى الخفاء، وأتأهب لأى تطورات مفاجئة.

***

أغــوص فى نفسي، وأمارس تمرينى السّري، نبْضى الخفي. أمارســه بطــرق داخلية محكمة لا يمكن لأحد أن يلاحظها. ليست هــناك حــركة ظاهــرة. فقط؛ أقبض العضلة، وأصغى للنبض. لا يمنعنـــى الإصغاء لنفسى من سماع الآخرين. أسمع، وأنبض بقوة فى مواجهة الكون.

التقـــيتُ بفايـــز عـــند موزة فى آخر الأسبوع. كان جميع من ســـبقونى مندمجـــين فى نقاش سياسى حاد. تابعت اشتباكات الكلام دون أن أهتم بتكوين وجهة نظر.

سحَبنى فايز فور وصوله إلى الشرفة، وقال:

ـــ دعْهم يواصلون هذا الجدل المُملَّ، وتعال نتكلم فيما يخصنا.

كان ساخطا على وداد:

ـــ هل كانت تظن أن خورشيد سيعطيها بطولة الفيلم وهى فى عمْر أمهاتنا، ولا خبرة لها بالتمثيل؟!

وكان ساخطا أيضا على كل فريق الفيلم:

ـــــ لا توجد قصة حتى الآن؛ مشهد من هنا ومشهد من هناك، نكـــتة مـــن الشرق ونكتة من الغرب. هكذا تتم صناعة أغلب أفلام الـــيوم، لـــذا تجدها مشاهد متلاصقة دون مبرّر درامي، مجرد بقع سينمائية.

وتأمل الأمر ساخرا:

ـــــ ربما كنا نخترع اتجاها جديدا هو "التبقيعية السينمائية"، أو

ربمـــا كانت هذه الأفلام تشبه واقعنا؛ لقطات مفككة بلا مغزى ولا سياق ولا منطق.

وبرر لى موقفه:

ــ أنا مسئول فقط عن الأغانى التى أكتبها.

لخصت إدراكى للمسألة:

ــ فهمْتُ؛ أنت "البقعة الغنائية".

***

ســـألنى فايـــز عمـــا إذا كنت انتبهت إلى عرض خورشيد أن أشاركه فى الإنتاج، وقال:

ـــــ ربما بدا كأنه يمزح، لكنه كان يقصد كل كلمة قالها؛ هذه طريقته.

ــ انتبهْت، وأُفكّر.

ــ منذ البداية انْس موضوع "مذكرات وداد" فهذا هو المزحة، أما بقية الكلام فهو جد؛ فكّر.

ــ لكننى لا أملك معلومات كافية، ولا خبرة لى بهذا المجال.

ــ المسأله بسيطة. بحساب الفلوس؛ الأرنب يصطاد أرنبا على الأقل. بحساب الفن؛ المسألة بأيدينا. سأكون إلى جوارك، أكتبُ لك قصص الأفلام، والسيناريوهات أيضا.

لـــم يكن كلامه مفيدا، مجرد خلطة مرتبكة من حسابات الربح

وآمـــال النهوض بدور الفن. قال إننا سندسّ داخل الكلام مضامين جـــادة. لـــم أفهـــم قصده جيدا. كان يشرح الموضوع وكأنه يخطط لمؤامرة وهمية، ولا يعرف حساباتها.

***

ألاحظ أن فايز يغطى بعبثيته المفتعلة إحساسا شديدا بالمرارة. أضـــجرُ أحيانا من الكآبة المخفيّة فى باطن تعليقاته الساخرة، وأنفر مـــن حـــساباته المتناقـــضة للأمـــور. أظن أنه لا يعرف ماذا يريد بالضبط. شخصٌ مُربِك.

أَتعجّـــبُ أحـــيانا مـــن ازدواجية مشاعره؛ يعامل الناس بتودد ولطف، لكنه يحدثنى بامتعاض عن الجميع وعن كل شئ؛ خورشيد ووداد والمجلـــة. حتـــى مـــوزة التـــى يسميها فى الجلسات "أميرة المعاني" يدهسُها بانتقاداته من خلف ظهرها، ويهمس فى أذني:

ـــــ مـــوزة ليست شاعرة ذات قيمة، لكنها جزء من ظاهرة كبيـــرة أســـمّيها "موزة وأخواتها". كل من يستطيع أن يدفع تكاليف الطـــبع يـــصدر كتابا، ويتحول إلى مؤلف مشهور. دور النشر لا تدقّق، والنقاد نائمون على المقاهي.

امسكْ قلما واكتبْ ما تشاء، وهات خمسمائة جنيه. أو لا تكتب وهات ألفا، وسأدبر لك أمر من يكتب باسمك. بألف أو بألفين تصبح مـــشهورا؛ مفكـــرا أو روائـــيا أو شـــاعرا. تنضم إلى فرقة "موزة

وأخواتها"، أهم فرقة فى حياتنا الثقافية؛ ادفع وافعل كل ما تشاء.

وضرب لى مثلا بنفسي:

ـــــ بفلوسك تستطيع أن تكون شاعرا أهم مني، أو صانع فكر سينمائى أشهر من يوسف شاهين.

هربت من العودة لحديث السينما، ودعوته للانضمام إلى موزة والمجمـــوعة. كانت اشتباكات السياسة قد توقفت، وبدأت مناقشات أخرى فى الفن والأدب.

***

لاحـــظ فايـــز أن حديث الشرفة بيننا انتهى بنفورى منه، فظل يترقب الفرصة ليصحح الموقف، وبالَغَ فى التودد.

***

ذكّرنـــى فايـــز فـــى تلك الليلة بحديث قديم بيننا، وقال لموزة وأخواتها إن جدّى كان فيلسوفا كبيرا.

كان الحديث أساسا عما يسميه فايز "الخروج عن المألوف" فى اللغة والخيال والمعانى الشعرية. لم أفهم قصده من الزّج باسم جدّى حمروش فى الموضوع، وهو شرح:

ـــــ كان جدّه رجلا غريبا، حرّم الحلال على نفسه خاصة فى النـــساء. هو بمعنى من المعانى أنكر القانون والأعراف والأخلاق، تعثـــر فـــى المنطق السائد وكفر به. فارَقَ المألوف، وابتدع حياته

ابتداعا، وهذا هو الفن.

وأضاف من عنده:

ــ فى النهاية صار جده وليا.

سألتنى موزة عما إذا كان جدِّى وليا معروفا وصاحب ضريح، فقلت لها إنه كان متشردا مخبولا، ولا نعرف له قبرا، وقد يكون فى النهاية مجرد وهم فى رأس عمِّي.

ــ ما أجملها من حياة، حتى وإن كنا مجرد أوهام.

قال فايز:

ــ هذه هى الحقيقة، كلّنا أوهام.

وعاد بى للموضوع الذى يشغله:

ــ ألا تصلح حياة جدّك فيلما؟

سألته موزة:

ــ من أول الليل وأنتما تتهامسان عن فيلم؛ ما الحكاية؟!

ــ هناك فيلم جديد سأكتب أغانيه، وهناك حديث عن فيلم آخر يشارك حبيب باشا فى إنتاجه، ويمكنك أن تشاركى أيضا.

ـــــ وماذا عن الفيلم الأكبر يا أستاذي؟؟.. لم نسمع رأيك فيه؛ تركْتنا نتناقش وهربت مع حبيب إلى الشرفة.

ــ أى فيلم؟

ـــــ الفيلم الأخطر الذى يهدّدنا جميعا؛ العراق والكويت. صدّام

لن يخرج، وأمريكا ستسحقه بجيوشنا؛ كارثة.

كانت نقلة غريبة في مسار الكلام، وقف لها فايز وهدد بالانسحاب:

ــ انسى هذا الموضوع تماما حتى لا تتلفى السهرة بالخلافات. كلامنا لن يقدم ولن يؤخر، هذه سيناريوهات كونية مكتوبة منذ زمن، وكل واحد يؤدى دوره.

وأعاد الرجاء باسم الجميع:

ــ دعينا هنا فى "بقعتنا الشعرية"، نسبَحُ فى الشراب، ونتأمل سماوات البانجو ونحن نصغى لقصائدك الجديدة يا "أميرة المعاني".

لا أقربُ المخدرات أبدا، وأكتفى بكأس واحد دائما.

تركتُهم يتجادلون. شربتُ كأسى على مهل، واعتصمت بنبضي.

أعتصم بنبضى فى مواجهة العالم، وأراقب ما يجرى حولي.

أحرِص دائما على ألا أتورط فيما لا يهمّني، فالحياة تبدو لى مربكة، والوجوه متغيرة، حتى الدول الكبرى تنهار وتتفسخ، والدول الصغرى تزحف خارج حدودها. لاتستطيع أن تأمن لعالم يتغير بمثل هذه السرعة؛ الأسعار والأوضاع والأفكار والمواقف والخرائط، حتى الناس يتقلّبون أمامك بأكثر من وجه. فايز مثلا؛ هل أستطيع أن أخمّن بسهولة ما يحب وما يكره؟.. صعب.

وجوه الحياة والناس متغيرة، تماما مثل وجه الجنيّة الذى تقلّب لجـــدِّى حمروش بألف شكل، وانتهى بهالة فارغة ضاع جدِّى وهو يطارد الوجه الوهمى فى دواماتها الحلزونية.

أعـــرف أن تلـــك الحكايـــة من تخاريف عمِّي المخبول، لكنها مجرد مثل؛ إيضاح.

***

طلـــبتْ موزة بإلحاح أن تصْحبَنى فى زيارة لعمِّي. قالت إنها تـــريد أن تـــراه بعينـــيها، وأن تسمع بأذنيها ما يحكيه عن جدي. ماطلْتها شهورا، وهى زادت إلحاحا:

ـــــ أفكـــر فـــى كتابة ملحمة شعرية عن جدك أسميها "الوجه المستحيل"، فلا تحرمنى من هذه الفرصة.

ذهبْنا معا.

لاتزال غرفته صامدة فى مكانها، وكل شئ يتغير حولها. علَت المبانـــى كثيرا وسطعت الأضواء وازدحمت الشوارع، والغرفة كما كانـــت دائما. حولها الآن ميدانٌ برصيف وأشجار وزحام سيارات ونـــاس، وهى فى صرّة الميدان، غارقة فى عتْمتها وصمتها وسط دوّامات الأصوات والأضواء.

فـــتحتُ الـــباب فـــتقلّب وميض كشافات السيارات على وجه عمِّـــيوهو فـــى جلسته المعهودة. نَفضْتُ الغبار عن شعره، ونَقرتُ

جمجمته، وأَسْمعتُه صرير الكرة الارضية:

ــ السلام عليكم.

تــثاءب، وومضَت عيناه فى العتمة. وميضٌ غريب، مثل نجم خــبا وتلاشـــى منذ عصور بعيدة، لكن شعاعه يصل الآن؛ وميض غامض حزين.

عرف صوتي، وسألني:

ــ أشم رائحة غريبة، فمن معك؟

ــ امرأة اسمها موزة.

ـــ جدك حمروش خدعته الأسماء، مديحة وصبيحة وسميحة. لم ير الوجه الحقيقي، وتاه فى تقلّبات الوجوه والأسماء.

لــم يكــن لدى عمِّي جديد يرويه عن جدنا حمروش لكنه كان يعــيد تأمل الحكاية. يقول، ويندهش هو نفسه من مفاجآت الكلام. كنت أتابع تعبيرات وجهه فى ومضات أضواء متقطِّعة تصل إلينا عبر الميدان.

***

قال عمِّي:

ـــ جــاع جــدنا حمروش ونام فى العراء. أكل من فضلات الــناس، وشــرب من حُفَر الطريق. كان يتتبع النساء فى الأسواق باحــثا فيهن عن وجه الجنية، أو يتوه فى الشوارع باحثا عن بيوت

كانت قد فتَحت أبوابها له يوما، لكنه لا يجد لها أثرا. لم يعرف أنها كانت بيوتا مسحورة. يركع ويبكى على الأعتاب:

ــ أين أنت يا هي؟

أحــيانا يطــادر امــرأة فى ظلام الأزقة، يحجِلُ خلفها عاريا متساندا على جدران البيوت، ويتْبعها من عتمة إلى عتمة.

أحــيانا كانت نساء يضعن أنفسهن فى طريقه، يلتمسْن البركة. وهو يفر من وجه إلى وجه، وكأن الجنية حرَّمته على نفسها وعلى غيــرها من بنات الإنس. يهرول فى شوارع الليل الخالية تائها فى تقلّبات البصر، ومتوسِّلا للهالة الفارغة المعلقة فوق رأسه:

ــ نظرة.

يغلــبه الحــال فيبكــى من الشوق، يبكى ويمسح دموعه بشال العمامة.

فى الشال ورود بعيون، وجدنا يبكى ويسكب دموعه فى عيون الشال، وكل عين تضحك وتشرب دموعه، تشرب وتضحك عليه.

فــى آخــر الليل يصعد سور المدينة فوق باب الفتوح، يطرق أبــواب اللــيل مــن كل الجهات، ويترنَّم بتسابيح شوقه فى انتظار الصبْح. كل صباح جديد يطلع بوجه جديد، لكنه يعيد الدور. وآخر كل ليل يبدأ جدنا حمروش تسابيحه من أوّل.

وياما حكى الناس عن "وقفة الفجر" والتسابيح.

***

فككْت مسامير عقلى بإشارات رمزية من يدي، وقلت لموزة :

ــ جنون.

ــ بل خيال، والخيال واقعٌ أيضا، هو قوة تُغيّر الواقع أحيانا.

أَتفَّهــمُ هــذه الطــريقة فى التفكير، لكننى لا أفضل الخلط بين الأمــور. الواقع واقع، والخيال خيال. وأنا يهمنى أن أعيش الحياة، لا أن أتخيلها. كنت أكرّر لها هذا الكلام دائما.

سألتنى موزة:

ــ ألا تؤمن بالروح؟

ـــ لمــاذا تحدثيننى عن الروح؟.. حدثينى عن تلك الفرصة النادرة؛ الجسد.

عاتبَــنَا فايــز لأننا تجاهلناه فى زيارة العم، وأقسم أنه سيحوّل حكايــته إلــى قصة لفيلم، سواء شاركْتُ خورشيد فى الإنتاج أو لم أُشارك.

يُلحّ كثيرا فى إقناعى بمشاركة خورشيد:

ـــ جــرّب مــرة، ارم الفلوس وترقّب. سيعود الأرنب إليك أرنبين، والأرنبان أربعة. سأتولى بنفسى الدعاية للفيلم.

وعرض مغريات أخري:

ـــ يمكنــنا أن نضع اسمك فى التترات كمؤلف لقصة الفيلم،

وأحـــتفظ لنفسى بالسيناريو، سيعوضُنى الأجر الكبير عن خسارتى المعـــنوية. هـــناك فـــرصٌ أخـــرى فى المستقبل؛ يمكنك أن تنفرد بالإنـــتاج، أو تفكـــر بالإخـــراج. سأتولى الدعاية فى كل المراحل، وســـترى اســـمك فـــى عـــناوين الصحف والمجلات: "حبيب الله الأفندي.. فِكْرٌ سينمائى جديد".

أعـــرف أن الأمـــر يعنـــى الكثير بالنسبة له، لكننى أفكر فيما يخصني. عموما انشغلْتُ بالموضوع.

***

تشغلنى أيضا فكرة الكتابة.

تدهشنى فكرة أن أظل نبضا معلَّقا فى الزمان، أنبض فجأة فى زمـــان ما، فى مكان ما، أداهم شخصا لا أعرفه ولا يعرفنى على غير موعد، يقرأني.

هـــل يعنى ذلك شيئا؟.. وما صلتى بهذا الشئ الذى سيبقى مثل شعاع تائه لنجم ميت؟

أتحسس أعضائى وأفكر، المسألة تستحق التفكير.

***

أتفـــادى لقـــاء فايـــز لفترات طويلة حتى لا يشغلنى ببرامجه ومـــصالحه الخاصـــة، لكننى حريص على استمرار الصلة، يفيدنى بعلاقاتـــه أحيانا. عموما هو شخص مُلْهِم، ينتج أفكارا كثيرة مهمة،

لكـــنه ليس فعّالا، أنسب وضع له هو وضع المستشار. أظن أن هذا هـــو حالـــه فـــى الشعر أيضا؛ يكتب نادرا، ويبحث عن أفكاره فى قصائد غيره.

طرحْتُ عليه أفكارى عن الكتابة، فاستبشر، ووعدنى خيرا:

ــ أخمّن أنك ستكتب فى النهاية.

ــ لكننى لا أجد موضوعا أبدأ به.

ــ اكتب عن جدك، عن عمك، اكتب عن نفسك.

اشتعلت الفكرة الأخيرة فى رأسه، فشجعنى بحماس:

ــ لو كتبْتَ عن حياتك بصدق وبلا خجل، لاكتشفت أن كتابك هـــو أعظم شئ عملته طيلة عمرك، وأن كل ماعداه كان لهوا حتى اصطياد "الأرانب".

وهمس بنبرة حزينة:

ـــــ مـــاذا يبقى منا فى النهاية غير هذا الشعاع التائه الحزين؛ الفكرة.

لا أدرى لماذا أحسسْتُ بالحزن معه.

هل هو الحزن الذى تعدُنى به نازك حين تقرأ طالعي؟

نازك مشغولة بالحاج حسين.

أعتــرض طريقها أحيانا لكنها تزوغ مني، تخطف كُمَّ عباءتها من يدي، وتسألني:

ــ ماذا تريد؟

أحْسِدها علي الصيد الثمين، فتمصمص شفتيها وترد:

ـــ مجــرد علاقة انسانية، الحاج رجل وحيد، لا ولد له ولا بــنت، وزوجتاه واحدة صماء والأخري عمياء. هو يعتبرني ابنته، فهل أتركه يموت من الهمّ وحيدا.

أفهم انسانيتها جيدا؛ رجل بعد رجل، تخطف وتجري.

مرة؛ شدْتُها من يدها وأجبرتها علي دخول محلّي.

ــ ماذا تريد مني؟

ــ هذا الزرار سقط من قميصي، وأريدك أن تخيطيه.

خاطــت الزرار، ونخست صدري بسن الإبرة أكثر من مرة. فعلت ذلك بصمت وغلّ، ثم عقدت الخيط.

تمهّلَت أمام المحل، وسألتني وهي تشير إلي الاسم المضئ في

الواجهة:

ــ لماذا لا تصدق أنك "وعْدي"، وتصر علي اسم "الأفندي"؟

ــ منذ متي تعلّمتِ القراءة؟!

ــ لا أقرأ إلا خطوط الكف والفنجان، لكن أهل الخان يتندَّرون باسم "الأفندي".

ــ ولماذا يتندرون؟

ــ اسم كريه، وفيه سخرية منك، الجميع يتندرون.

وكشفت أوراقا كانت مستورة عني:

ــ أولهم الحاج حسين، أخبرَني أنه كان هنا في الخان كثير من الأفندية"، وكانت لهم مقاه مخصوصة يتحاشي الناس الجلوس عليها لأنهم يعتبرون "الأفندية" من أبأس المخلوقات.

حكـــي الحاج إنهم كانوا عاطلين، ولا يعرفون مهنة أو حرفة؛ مجـــرد زيـــادة فـــي عدد الخلق. يؤجِّرون ملابس أفندية الحكومة ويجلـــسون علـــي المقاهي. يعرضون أنفسهم للإيجار في الجنازات وزفّات الأعراس. مناظر لزيادة أبّهة أهل الفرح أو الجنازة.

***

زعلْت بجد.

عاتبت الحاج حسين علي ما قاله لنازك، وذكّرته بأنه أول من أطلـــق علي لقب "الأفندي". تلقّي كلامي بوجه قاس تتشابك دوائره

مثل سلسلة حديدية، وقال:

ـــــ لم أكذب علي البنت في شئ. وهل في الخان الآن "أفندي" غيرك؟.. أنت آخرهم وأسوأهم.

هـــم كانـــوا فقراء؛ يأكلوا بالدّيْن ويلبسون بالإيجار، وينامون تحـــت الكراســـي، ويحتالون للرزق بالمشي في الجنازات وزفّات الأفراح. نصّابون وكذّابو زفة، لكنهم لا يؤذون أحدا. أما أنت فتأكل الجيفة، وتلبس فراء ثعلب، وتنام في حضن دولاراتك.

لا تنـــسي أنك بدأت هنا مثلهم؛ كانت نازك تؤجّرك لحسابها، مجـــرد منظـــر لحمايتها من بلطجية العُمْلات. إذا نسيت فنازك لا تنسي، اسألها لتذكّرك بما كان.

***

لا أستطيع أن أخمّن سر هذه الكراهية المفاجئة. أهو الحسد، أم خرف الشيخوخة؟.. أم تُراه يغطي خجله مما يفعل مع نازك؟

انصرفْتُ غاضبا.

جفـــوتُه طويلا، لكنني ظللت طول الوقت حريصا علي متابعة أخـــباره. كان بعض أهل الخان يتابعون معي بشغف فيلم الموسم: "عودة شباب الحاج حسين"؛ مسخرة.

فـــي نزوته المتأخرة أهمل الحاج حسين صلاة الجماعة. كان فـــي حالـــة انتظار دائم لصوت نازك وحضورها، يخشي أن تفوته لحظة.

احـــتفظ فـــي خزانة مكتبه بزجاجة ويسكي ومراهم وخلطات وأقـــراص مقوية، ينزوي ويرشفُ ويبلع ويدهن بعيدا عن الأعين، وعندما يضبطه أحد أصحابه بالزجاجة، يفسّر له الأمر بلا اكتراث:

ـــــ صـــحة الأبـــدان قبل صحة الأديان، والأطباء يقولون إن الويسكي بالذات مفيد للقلب.

اســـتعداد دائم لمتعة لا أستطيع أن أضمن إن كان نالها أم لا، ونازك لم تخبرْني بالطبع.

هـــي تظهـــر وتغـــيب، وهو في انتظاره الدائم، يبيع ويشتري ويساوم بملل، يترقب إطلالتها.

ينتظـــرها طـــويلا حتي تنتهي من أعمالها في مقاهي الخان، وينـــصرفان فـــي وقـــت متأخر. هدأة ليل، وحارات خالية إلا من الخفراء. يميل عليها بطوله الفارع ورأسه الأشّيب الصغير، يتركها

تتأبطه وتخبطه بليونة ردفيها. يودّعه الخفراء.

ــ طريق السلامة يا حاج.

***

طرحْتُ علي فايز حكاية "نازك والحاج حسين" كقصة لفيلم. لم يــتحمس للفكــرة، وأظــن أنه لم يسمعني جيدا. كان مشغولا طول المكالمة بالشكوي من وداد:

ـــ تطاردنـــي بالتلــيفون حتي مطلع الفجر، تسأل عن أخبار فــيلمها المرتقب؛ "حياة وداد". أظنها أصيبت بلوثة. لو سألتك عني أخبــرْها أننـــي مــت أو هاجرت، أو أنني قتلت خورشيد ودخلت السجن. قل لها أي كذبة تجعلها لا تفكر في الاتصال بي، أصبحت تزعجني.

اتــصلتْ بي وداد من عند طبيب الأسنان، وقابلتُها في كافتيريا الشيراتون. هي التي اختارت المكان، لكنها ظلت قلقة طول الوقت:

ـــ لا أحــب هــذه الأماكن المفتوحة، دائما أصادف فيها من يتذكرنـــي ويتطفّل عليّ. أصبحت أكره الأضواء. كان تفكيري في الفيلم غلطة. هل نكْمل سهرتنا في البيت؟

كانــت تلبس خاتما به ياقوتة نجمية حمراء. حاولْت أن أحدثها عن الحجر الثمين لكنها سحبت يدها وأنهت الكلام:

ـ رخيص جدا جدا.

لم يكن مزاجها مناسبا، وكانت أضواء الممشي الساطعة تخمد بريق النجمة في باطن الحجر.

لا تــزال مــشغولة بالفــيلم. واضح أن المسألة تشغلها طول الوقت، تلف وتدور وترجع لها:

* هــل كان يجب علي أن أقبل ذلك الدور الهزيل، ولا أضيّع الفرصة؟

* هل تظن خورشيد جادا في عمل فيلم عن حياتي؟

* هل تفكر جديا في مشاركته في الإنتاج؟

* فـــي حياتي حكايات كثيرة وأسرار مدهشة، تصلح فيلما في هوليوود.

لم أخبرها أنني قابلت خورشيد أكثر من مرة، وأن بيننا كلاما ممتدا. خشيت أن أعلّقها في حبال وهم فيلم "حياة وداد".

كنت ودودا معها، وهي كانت عاطفية جدا. خمّنت ما يمكن أن يحدث فبدأت أنبض تأهبا للموقف.

***

عاملتْني في شقتها بمودة وكرم:

ـــــ مـــدّد رجلك، اخلع قميصك، في صحتك، انهض لأغسل وجهك.

فاجأتني قرب الحمام وأنا أجفف رأسي. كانت تترنح:

ـــــ لا أعرف لماذا أترك نفسي هكذا؟.. هل ضاقت الدنيا إلي هذا الحد حتي أركع لك؟

ركعَـــت بالفعـــل. وتسلَّقتْ ساقي بيديها وشفتيها حتي صعدت بقبلاتها إلي منتصفي، وعقدت يدها حول خصري. عقدت يدي علي صدري، وتركتها تفعل ما تريد.

ظلّت طويلا راكعة بين قدمي علي سجادة الممر.

أنبض بقوة.

***

شـــجعتني تـــصرفاتها تلـــك اللـــيلة علي أن أسألها عن قضية الشرائط، فردت بصراحة أكبر:

ـــــ ومـــاذا فيها؟.. كانت سياسة، تلفيق، مؤامرة لإبعادي عن الشاشة. الجميع يعرفون ذلك.

اعترفت بعد أيام أن الشريط صحيح:

ـــــ مجرد حديث بين واحدة وصاحبها، لكن الصحف ضخّمت القضية. لم أكن أحبُّه ولا أظنه أحبَّني، كان كل ما بيننا مجرد نزوة، كلام، شقاوة شفاهية.

كـــان صـــحفيا مهما في مجلة فنية، جاملني بالكتابة عني عدة مرات واتصلت به لأشكره، كنت في حاجة لأي مساندة.

مكالمـــة بعـــد مكالمـــة انفتح بيننا باب الوصال التليفوني. هو تـــسحرُه أصـــواتُ الفـــراش، وأنا أستاذة. عملنا كل شئ معا علي التليفون، مجرد كلام. لا أدري هل سجّلَت الأجهزة مكالماتنا، أم هو الـــذي سجّل وأنتج الشرائط. لست متأكدة حتي الآن، لكن المسألة فـــي أيّ مـــن الحالتـــين كانـــت مؤامرة صغيرة للإطاحة بي من التليفزيون.

اجـــتهدَت وداد فـــي إقناعـــي بأن الحكاية في حد ذاتها ليست خطيرة، وأن غيرها من المذيعات ضُبِطْن في قضايا آداب، بأشرطة

فـيديو بالـصوت والـصورة، ومرّت الأمور بسلام، ولكن توقيت شريطها كان حساسا ومريبا أيضا.

ـــ لم أكن أبدا عضوا في شلة، لم أربط نفسي بأحد حتي من صنعوا نجوميتي. تعاملت مع الجميع وسايرْت كل الاتجاهات، حتي فـي الـسياسة. كنت أظن أن ذلك طريق السلامة، لكن عندما دار الصراع بين الشلل، ضربني الجميع، وجاءت واقعة الشريط لتُجْهِز عليّ، كنت وحيدة.

***

تعـدَّدت لقاءاتـي مـع وداد علي مقاهي الرصيف في وسط المدينة، أقرب مكان لعيادة طبيب الأسنان. تبدو ذابلة ومرهقة كأنها تعانـي مـن مـرض ما، لكنها كانت مهتمة فقط بأسنانها، الحشو والتركيب والتلميع؛ البريق.

كانت تبيع ذهبها وتدفع لي بسخاء، وتنبهني باستمرار:

ـ إيّاك أن يعرف أحد أنني أبيع ذهبي.

تحكـي عـن جارتهـا الممثلة التي قتلها لص وهو يحاول أن يسرق مصاغها. حكاية قديمة معروفة نشرت الصحف تفاصيلها في حينها، لكن وداد تتذكرها كثيرا، وتختمها بالسؤال الملح:

ـ لماذا أحتفظُ بذهبي، وأعرّض حياتي للخطر؟

طلبت مني أن أبيع لها صندوقا به عشرون قطعة دفعة واحدة،

قالت إنها كانت هدايا لا تستطيع الآن أن تميّز بين أصحابها.

ـــــ عرب ووزراء ولواءات طلبوا الوصال ولم يحصلوا حتي علي كلمة، رجال ماركة "اذكريني".

قالت إن هذا آخر ما ستبيعه من ذهب. وأن ما بقي لديها قليل، لكنه عزيزٌ عليها جدا ولن تفرط فيه:

ـــ مفاتيح ذكرياتي؛ كيف أفرّطُ فيها؟!

***

لا تـــدرك وداد مدي انشغالي، وتفترض أنني جاهز لها دائما. أهـــرب من ثرثرتها التليفونية الليلية، وأحرص علي أن أباعد بين زياراتي لها. أظن أنها وحيدة الآن، ولا يزورها غيري.

كنت منشغلا جدا بتحويل دكّاني إلي مكتب صرافة. خطوة إلي الأمـــام سمحت بها القوانين الجديدة، وعليَّ أن أنتهز الفرصة. أظن أننـــي سأكون صاحب أول مكتب لتغيير العملات بشكل قانوني في الخان، وربما الوحيد لفترة طويلة.

ألْزمنـــي القانـــون بتكوين شركة مساهمة، فأشركت معي فايز وخورشيد بصورة رمزية، واحتفظت لنفسي بالحصة الأكبر.

تخلَّصْتُ من بضائعي، وجهّزت المحل للوضع الجديد. أعددت لافـــتة احتفظت فيها بالاسم نفسه؛ "الأفندي للصرافة". صنعت هذا الاسم بنفسي ولا أستطيع أن أتخلي عنه، ماذا يهمني من كلام نازك

والحاج حسين؟.. مجرد حسد.

نازك وحسين؛ فيلم استمر سنوات، والكلام كثير.

يقولـــون إنـــه أجّر لها شقّة في الدراسة، دفع خلو الرِّجل من جيـــبه، وكـــتب العقد باسمها. سألتها عن ذلك حين جاءت لتهنئتي بافتـــتاح مكـــتب الـــصرافة، وشجعني علي ذلك أنها كانت هادئة ومتوددة وراغبة في الكلام:

ـــ أرانبك كثُرت يا وعدي؛ مبروك.

ـــ ومبروك أيضا شقتك الجديدة.

ـــــ ليست جديدة، هي شقة صغيرة في بيت قديم، لكنها أفضل من جوار الموتي.

ـــ أي موتي؟

ـــ ألم تكن تعرف أنني وابنتي نسكن المقابر؟

ـــ لم تخبريني بذلك.

ـــ لو اهتممْتَ لعرفت. ثم ماذا كنت ستفعل لو أخبرتك؟

ـــ ولماذا تركت مسكنك القديم في "درب الصافي"؟

ـــــ كـــنت أحـــتاج نقودا لمصروفات الحمل والولادة، فرحت

بمائتـــي جنيه أخذتها من صاحب البيت لإخلاء الغرفة، وفضلت أن أبـــتعد عن الناس حتي لا أفضح نفسي. سكنت مدفنا مع أقرباء لي، فقراء لكنهم طيبون، ستروني ورعوا ابنتي في غيابي.

أعتـــرفُ أن الأمر فاجأني، وصدمتني فكرة مجاورة الموتي. ربَّتُّ كتفها، وهي أخبرتني بلا خجل أن الحاج حسين ساعدها:

ـــ لم يدفع كل الفلوس، لكنه دفع الجانب الأكبر.

ـــ أيقيم معك في الشقة؟

ـــ لم يدخلها برجْليْه أبدا، هي شقة ابنتي.

ـــ لكن الناس يحكون كثيرا عما بينكما.

ـــــ دائمـــا تحدثني عما يقوله الناس عني، ولا تهتم بأن تسأل قلبك.

لاحظْتُ لهجتها الجديدة بارتياح.

أستطيع الآن أن أخمِّن النهايات؛ أعرف برنامجها جيدا، وأري بوضوح قشعريرة الحية تتقلّب في بياض عينيها.

كـــنت أريـــد أن أسألها عن أشياء أخري، لكنني انشغلت عنها لحظات فانصرفَت دون سلام.

كانت وداد قروي علي التليفون.

دعتنـــي وداد للعشاء في منزلها. كانت متوترة وعاتبة، لامتني علي غيابي، وأنذرتني أنها ستشطب اسمي ورقم هاتفي من ذاكرتها لو تكرر ذلك.

اعتذرْتُ عن غيابي الطويل بكذبة:

ــ شغلني عن زيارتك أمر يخصك، عقد فيروز طبيعي أحاول أن اشتريه لك. كنت مصمما علي ألا أراك إلا وهو في جيبي، لكن الـــبائع أرهقنـــي فـــي المساومة، لاحظ حرصي علي الشراء فرفع السعر، ومازلت أساومه يوما بعد يوم.

ـــــ ليس عندي استعداد لشراء أي شئ الآن فلا توجع رأسي بكلامك، أحتاجك لأمر آخر. تعال بسرعة، وهات زجاجة نبيذ.

قبل أن أدير ظهري للتليفون طلبتني مرة أخري:

ــ لا تتأخر، نبيذ وسجائر.

دعـــوة متأخـــرة للعشاء، العاشرة ليلاً علي ما أتذكر. أنا أيضا تلكـــأت ســـاعة أو اثنتـــين، تأهبت بكسل لليلة خمّنت أنها ستكون صعبة.

داريـــت كذبتي بعقد فيروز اخترته من أدراجي. لم يكن عقدا أصـــليا بل خلطة صناعية زرقاء يسميها التجار" الفيروز الألماني". أحـــتفظ بعقـــود أخـــري من فيروز طبيعي، لكنني فضلت الألماني لرخص سعره، يمكنني أن أفرّط فيه.

***

دخلت عليها بالعقد فزاد توترها:

ـــــ لمـــاذا اشتريته، لا أريده، ولن أدفع جنيها، لست مستعدة لشراء أي شئ الآن.

فاجأتها:

ـــ هدية.

دفعْـــتُها أمامـــي بـــرفق إلي المرآة الكبيرة في وسط الصالة، وشبكت أطراف العقد حول عنقها. سألتني:

ـــ حجر طبيعي؟

ـــ أصلي؛ فيروز ألماني أصلي.

ـــ بكم اشتريته؟

ـــ هدية، اقبليه مني، صمَّمْت ألا أراك إلا وهو معي.

ـــ الله عليك؛ بديع.

فردت يدها اليسري للخلف، واحتضنت رقبتي. دارت بأصابع اليمني فوق صدرها حول العقد، وتمهلت أمام المرآة تتأمل المشهد:

ـ الله عليك.

تراجعت بي إلي الخلف ونحن علي هذا الوضع، كان صدري يلامـــس عظام ظهرها. حاولت أن تقلِّد مهارة راقصي البالية، لكن خطاهـــا كانـــت مرتعشة. مالت برأسها للخلف وقبّلت خدي. كنت مشغولا مثلها بتأمل المشهد، لم أقبّلها.

ناولـــتُها كيس الطلبات، فسعدَتْ بزجاجة النبيذ، وشهقَتْ بفرح ماكر:

ـ هدية أيضا؟!

لكنها احتجّت حين رأت السجائر:

ـــ غيّـــرت هـــذا الصنف بعد أن زاد السعر. لو زرتني قبل شهرين لعرفت أنني أدخن الآن سجائر مصرية.

ـ اعتبريها هدية أيضا.

ـ كل هذا لي؟!.. الله عليك يا ولد.

***

لـــم تنادنـــي باسمي أبداً، أظن أنني ظللْتُ بالنسبة لها بلا اسم، مجرد ولد، نوع.

***

ليس علي طاولة الصالون طعام يليق بعشاء؛ زيتون وشرائح جـــبن وخيار وطماطم، وزجاجة نبيذ شربت وداد أكثر من نصفها

قبل حضوري.

شـــربنا النبيذ من كوب واحد، هي فضّلت ذلك، واعتذرت عن سوء مستوي الطعام:

ـــــ لـــم أكن واثقة من حضورك، بل لم أكن أنوي أن أدعوك أصلا، لكنني فكرت فيك في آخر لحظة.

ودخلَت في الموضوع.

ـــ أريد أن أبيع آخر ما تبقّي من ذهبي، مفاتيح ذكرياتي.

فـــتحَت الـــصندوق ووضـــعَت القطـــع الذهبية علي الطاولة. وسألتْني:

ـــــ هـــذه مفاتـــيح ذكرياتي، لم أكن أنوي أن أفرط فيها. كم تساوي؟

***

قِرْط كبير علي شكل هلال بأحجار من الفيروز. قالت وداد إنه ميراثها الوحيد من أمها:

ـــــ الـــشغل تركـــي والفيروز من أحسن الأنواع في العالم ، إيراني. هو آخر ما تبقي من ذهب أمي، باعت كلَّ ما عداه من أجل تعليمي في الجامعة الأمريكية.

أنـــا وضـــعت الأســـرة في هذا الورطة. صمّمتُ علي دراسة الصحافة في الجامعة الأمريكية، وكانت درجاتي العالية في الثانوية

تـــضمن لـــي مـــنحة تعفيني من الرسوم في السنة الأولي. فرِحْت، وفرحَت الأسرة كلها؛ وجاهة.

بعـــد السنة الأولي كان عليّ أن أسدد الرسوم، لم أحافظ علي تفوقـــي؛ حـــب وكافيتـــريات وحفـــلات، ورّطتُ الأسرة في دفع المصروفات.

أبـــي كان مديرا عاما لإحدي شركات القطاع العام، لكن مرتبه كـــان يكفي مصروفاتنا بالكاد، سيارة وشغّالة ونادي ومصيف. أمي ســـاعدت ببيع ذهبها، وأعطتني آخر قطعة منه يوم التخرج. لبسته أول مـــرة يـــوم امـــتحان التليفزيون، كان الفيروز فأل خير، معناه بالفارسية "حجر النصر".

***

خاتم بفص كبير من الياقوت النجمي، قالت وداد إنه أول هدية حب:

ـــــ عـــرفْته في أول الطريق. كنت مذيعة تحت التدريب، ولم تكـــن لدي واسطة تسندني. هو اكتشف إمكاناتي وراهن عليّ بشدة، كان مخرجا عبقريا.

يكبرني بعشرين سنة، لكنني أحببته بشدة، وجوده يعني الكثير بالنسبة لي؛ محور أحلامي. هو أيضا أحبني، اعتبرني شيئا يخصه. ذاب فيّ وذبت فيه؛ نشتغل ونحب بجنون. أعطاني كل وقته وجهده

وقلبه، تخلي عن برامجه المشهورة وتفرّغ لإطلاق الصاروخ.

وانطلق الصاروخ.

بعد سنتين كنت نجمة، اسمي أكبر من اسمه، والكبار يتهافتون علـــي برامجـــي. فـــرحت بنفسي، وانشغلت بصراعات وعلاقات جديـــدة. لم أنتبه لما كنت أفعل، لكنه لاحظ. ابتعد خطوة خطوة، ثم دعاني للعشاء في كازينو علي النيل.

كـــان حزينا خلال اللقاء. اعتذر عن أنه لم يقدم لي هدية خلال حبنا الطويل، وفاجأني:

ــ الآن وقد انتهي حبنا أستطيع أن أهديك هذا الخاتم.

فرحت بالخاتم وبالخاتمة أيضا، لكنني اندهشت من طريقته في التفكير. كان عبقريا مجنونا. لم أسمع منه كلمة "حبنا" خلال علاقتنا التـــي استمرت أكثر من عامين، نطقها فقط في عشاء الوداع، وقدم هديته الوحيدة، النجمة، الياقوتة.

لـــم يتعجل في وضع عنوان العلاقة منذ بدايتها، ترك العنوان لآخر سطر، ونقشه علي الخاتم بالنجمة؛ أنا.

***

قـــلادة مـــن الذهب الأبيض بِكُرات متدرجة الأحجام من حجر القمـــر. رأيتها بهذا العقد يوم تعارفنا. مددت يدي أتحسسه فأطبقت يدها عليه وضمته إلي صدرها:

ـــــ الله عليه، أحبني بجنون وأهداني هذا الحجر الغريب، كل يـــوم يكون في حال من حالات القمر في نوره وظلامه، لهذا سموه حجر القمر.

كـــان مـــسئولي التثقيفي في التنظيم، ومعلقا سياسيا بارزا في الإذاعة. واسع العلاقات جدا، وعلي أعلي المستويات. أفادني كثيرا.

مـــثقف، كأنـــه يعرف كل شئ، وكلامه كبير. كلام من النوع الذي تتمني أن تقوله، وأن تتقن كيف تقوله. تعلمت منه.

كـــان واثقـــاً محبا للحياة، وله هوايات غريبة. يحتفظ في شقته ببيغاء استرالي، درّبه علي جملة واحدة: "تحيا مصر".

في شخصيته مرح لا يناسب وزن عمله الفكري، ويصل أحيانا لدرجـــة الخفـــة. ابن نكتة، يسخر حتي من قصر قامته. أنا طويلة جـــداً، وهو شبر ونصف، حين يكلمني يكوِّر يديه حول فمه كبوق، ويقلب وجهه إلي فوق مناديا: "انزلي سلمتين يا وداد".

يناديـــني أنـــا الطويلة جداً لأنحني كي يقبلني، ويشبّ هو علي أطـــراف أصـــابعه لـــيكمل بقية المسافة. ما كان أحلاه، يشب كأنه يلامـــس القمر، يكسر ظهري بقبلته. يقبلني والببغاء يصيح بابتهاج أمامنا: "تحيا مصر".

بعـــد النكسة فقد بريقه، سكنت الميكروفونات، وتحول هو إلي مجرد موظف كبير بلا صلاحيات في مكتب رث. انزوي حتي في

التشكيلات الحزبية. قل احتكاكي به.

أصادفه أحيانا فيعاتبني علي ابتعادي عنه، ويسألني:

ــ ألم تكوني تصدّقين؟

ـــ أتتــصوّر؛ ولامرة فكّرت. أتصدّق؛ والله ما فكرت، لكن الكلام كان يعجبني، يطربني.

ــ كلكم لم تفكروا، واكتفيتم بالطرب.

***

تسألني وداد :

ـــ أسمِعْت الجملة يا ولد: " لم تفكروا واكتفيتم بالطرب". ماذا كان يقصد؟! حتي الآن لم أفهمها.

يذكرني حديثها بكلام لأبي؛ "الطرب السياسي".

***

قالت وداد:

ـــ خــسر كل شئ بالتدريج حتي مكتبه. لم يعتقلوه في ثورة التــصحيح، وإنمــا طردوه من الإذاعة إلي شركة "باتا" في حركة تطهيــر. لــم يتــسلم عمله الجديد. لزم شقته، يبحث عن أصدقائه القدامي بالتليفون.

مات بعدها بشهور وهو يتصفح الجرائد ويتأرجح علي الكرسي الهزّاز، والببغاء يصيح أمامه: "تحيا مصر".

***

دبلـــة ســـوليتير. ذكـــرت وداد أنها كانت شبْكَة الخطوبة من زوجها الوحيد؛ الطيار. مات في حرب العبور. لم يعاشرها طويلا، أقل من سنة ومات.

قالت:

ـــ لم أفتقده، ولم أحزن طويلا. استشهاده شرَّفني، رفع رأسي. من يومها صاروا ينادونني: "أرملة البطل".

***

في الصندوق كيس حريري قالت وداد إن فيه أشياء أخري:

ـــــ عقـــود وأقـــراط فـــضية، مشغولة بعقيق بلدي وكهرمان مـــضغوط ومـــرجان مصبوغ باللليزر وملكايت، أشياء بلا قيمة، لا تساوي.

خجلـــتُ من كلامها، فأغلب هذه الأشياء اشترتها عن طريقي. خجلت أكثر من عقد الفيروز الزائف الذي أهديْته لها أول الليل.

هي تنبهت لحرجي وجاملتني:

ـــــ هـــذه العقود غالية عندي لأنك اشتريتها بذوقك، وأغلاها عندي هديتك؛ عقد الفيروز، كأنه أصلي، الله عليك يا ولد.

انفـــردت وداد بزجاجة النبيذ الثانية، ومع آخر قطرة كانت في حالة مرهقة من الإعياء والشجن وهي تحكي:

ـــــ عشت حكايات كثيرة بعد طرْدي من التليفزيون، حكايات قـــصيرة جـــدا. كـــنت أعرف من بدايتها أنها لن تكون مسلسلات طـــويلة، أو بـــرامج تستمر أسابيع أو شهورا، مجرد حلقة، سهرة درامية تنتهي في ليلة، أو أسبوع علي الأكثر.

أحـــيانا كنت أقنعُ بقبلة، أو بوَصْلة حارة علي التليفون. عشت آخر سنيني امرأة مهجورة.

كانت حزينة ومهانة. مال رأسها علي كتفي، وتدلت يداها حول رقبتي باستسلام. واصلت همسها:

ـــ ظللْتُ مهجورة حتي رأيتك، أم تراني أعيش وهما؟.. لماذا أثـــق بك وأحكي لك كل شئ؟!.. هل ضاقت الدنيا إلي هذا الحد؟.. لا أظن أنني أحبك، لكن لا أستطيع أن أستغني عنك، ماذا فعلت بي يا ولد.

فكّت أزرار قميصي وهي تتقلب فوق صدري :

ـــــ لمـــاذا لا تخلـــع ملابسك. تكلمت كثيرا هذا الليلة، فقبلني لأسكت.

***

وأنـــا أقـــبلها تـــسلل بعض من فتات أضراسها إلي فمي؛ لعق لسانها سقف حلقي فأحسست بالخشونة. كانت تتأوه من النشوة وأنا أدفع الفتات الخشن بطرف لساني إلي حافة شفتي ثم أبعده بإصبعي.

تشبَّثَت بيدي:

ــ لا تبتعد.

تــركْتُها تــضمني بالطــريقة التي تريدها، وهي ظلّت تتمطي وتتأوه. أظنها كانت نشوة زائفة.

ســألتْني إن كــنت قــد اســتمتعت، فمسحت شعرها براحتي واحتضنت فروة الرأس بحنان. أظن أن لمستي الزائفة كانت جوابا مناسبا طمأنها علي مستوي الأداء.

***

اســتيقظتُ بعــد الظهــر، لم يكن لدي جهْد أبذله في لمسات إضافية. وهي كانت متعبة إلي درجة الإعياء، متعبة وقلقة، لم تهتم بإفطار ولا بكوب شاي.

سلمتْني مفاتيح ذكرياتها:

ــ لم يعد عندي شئ أبيعه، هذا آخر ما عندي.

نبهــتها بدوري إلي أن بيع الذهب والألماس معروف، لكن بيع الأحجار صعب، وبخسائر دائما. قلت:

ــ البيع غير الشراء.

ـــ حاول بأعلي الأسعار، ولا تتأخر. أحتاج نقودا، ثم أنني لا أريد أن يعرف الناس أنني أبيع ذهبي.

***

حملـــت الصندوق وانصرفت وأنا أفكر في معرفتها بالأحجار، كلامهـــا الأخيـــر بـــيّن لي أن خبرتها ومعلوماتها أكبر بكثير مما توقعت. كانت تستطيع أن تفرق بين الحجر الأصلي والزائف، لكنها أخفت ذلك عني وقبلت كل ما اشتريته لها، ودفعت الكثير. كل مرة تشهق من الدهشة وتدفع:

ــ الله عليك يا ولد، بديع.

لماذا كانت تغفل ذلك؟

أغلب الظن أنها كانت تدفع الثمن.

ثمن ماذا؟.. أفكّر.

***

ماتت وداد ومفاتيح ذكرياتها لاتزال في خزانتي. قرأت الخبر وتابعـــت مـــا نـــشر عـــنها؛ أخـــبار ومعلومات قليلة، وصور من الأرشيف، ولقطة في التليفزيون بالأبيض والأسود من أحد برامجها القديمة.

فازت نازك بقلادة حجر القمر.

لا أعــرف كيف استطاعت أن تغافلَني وتهرب بها، ولا كيف ســهوْت أنــا بهــذه البــساطة. ربما أربكتني زيارتها المفاجئة في المنــزل، صــحيح أنني كنت أتوقع شيئا مثل ذلك، لكن ليس بهذه السرعة.

وجــدْتها ذات ليل تنتظرني أمام باب الشقة؛ اللقطة المعهودة. غَفــتْ وهــي جالسة ورأسها مسنود علي خشب الباب. أحسَّتْ بي فألقت نفسها في حضني، وشهقت دامعة:

ـــ آه يا وعدي؛ أذهب لآخر الدنيا وأرجع لك، لا أدري ماذا أفعل بنفسي بدونك؛ قدَرٌ مكتوب.

أُخمّــن دوافعها؛ إما منفعة عملية، وإما أنها تريد الاحتماء بي مــن شــخص مــا، أو تــريد أن تقطع نفسها عن علاقة استنفدت أغراضها.

بــرنامج لا يتغيّــر؛ ترجع بعد غياب، وأنا أتقبّل، وهي تتمتم: "مكتوب".

أبـــدي دائما فتورا في تقبّلي لرجوعها، لكن هذه المرة وجدت نفـــسي أرحـــب بهـــا، ربمـــا لأن هذه العودة تعني شيئا ما بالنسبة لعلاقتي بالحاج حسين. لا أغفر له أنه أهانني من أجلها، وعليه الآن أن يعرف عن أي امرأة كان يدافع.

ربَّـــتُّ شعرها، وتركْتها تسكن في حضني طويلا تحت نسمات المكيف الباردة، ثم سألتها بهدوء:

ـــ ماذا تريدين الآن؟

ـــ أريدك أنت يا وعدي، شوقي لك يذبحني كل يوم ألف مرة.

ـــ أعرفك يا نازك، وأراهن أنك تريدين شيئا ما، منفعة ما.

ـــ أريد أن أهرب بك لآخر الدنيا، إلي مكان لا يرانا فيه أحد. جرِّب يا وعدي؛ وتعال نهرب..

ـــــ .. ونـــركب معـــا الحـــصان المجنَّح، المعلَّق بين السماء والأرض!

ـــــ بل نذهب إلي أي مكان علي البحر، تلك الشواطئ البعيدة، "فايد" أو "مطروح"، وسأدفع كل التكاليف عنّي وعنك.

أخمّن دوافعها الماكرة، لكن الفكرة راقتني. كان غيابها الطويل جارحا لكبريائي، وأريد أن أتفرّغ قليلا لترويضها، أن أكسر أنفها. كمـــا كـــنت أريد أن أخلو بنفسي لأتخذ قرارا في موضوع الإنتاج السينمائي بعيدا عن إلحاح فايز وخورشيد. أخبرْتها أنني سأفكر في

الموضوع.

وبدأتُ الترويض.

أمــرتها أن تــنظّف الأرض مكان خطواتها، وأن تستحم لأن رائحة جسدها وملابسها تزعجني.

فعلَــتْ ذلــك برضي، وعادت من الحمام عارية إلا من فوطة ملفوفة حول شعرها.

كــان عقد وداد علي المكتب فشبكته حول عنقها، وتقلّب حجر القمر الثمين في الضوء الساطع بزرقة قوس قزح.

هجمَــتْ بصدرها اللين علي وجهي، ودعتْني أن أنظر جمال العقد:

ــ ألا يناسبني؟

تجاهلْــتُ إغــراءها المبــتذل، ثم ناولتها جلبابي، وأمرتها أن تجلــس. حــشرَتْ جسدها البدين في الجلباب، وركعت جنبي مثل قطة. سألتها:

ــ أين ستتركين أبنتك لو سافرنا؟

ـــ نــور كبرت؛ ما شاء الله. هي الآن في التعليم الإعدادي، وجارتي ترعاها في غيابي. مسكينة الجارة؛ تطارد زوجها الهارب في المحاكم من أجل النفقة، وتخدمني وترعي ابنتي مقابل لقمتها.

لــم أقتــرب منها في تلك الليلة، كان لابد أن أُحْبط برنامجها

المعلوم. سألتها عن أحوالها مع الحاج حسين، وهي تصنَّعت الدهشة لسؤالي:

ــ وماذا يقلقك من الحاج حسين وهو في عمر أبي؟!.. الرجل صـــاحب فضل عليّ في موضوع شهادة ميلاد ابنتي، وأنت الذي نبَّهتني لذلك، فهل أخطأت في رد المعروف؟!

أثنـــيت ساخرا علي طريقتها في رد المعروف، لكنها تجاهلت تلميحاتي، واستمرت تتحدث عنه بالخير:

ـــــ له أفضال كثيرة؛ آخرها مساعدته لي في موضوع الشقة، أخرجني من حياة القبور بشهامته.

وشرحت المسألة بالأرقام:

ـــــ دخلي يكفي مصروفات مدرسة ابنتي بالكاد، لم أدفع للشقة أكثـــر من خمسة الآف جنيه ادخرتها جنيها فوق جنيه، ودفع الحاج عشرة الآف من جيبه ليكمل "خلو الرِّجْل" المطلوب، وعندما حاولت ان أرد له بعض ماله رفض.

أخبـــرتها أن حكاية " شقة الغرام" شائعة بين أهل الخان وفيها روايـــات كثيـــرة، فأقسَمتْ أن الحاج حسين لا يعرف مكان الشقة وقالت:

ــ كل الحكاية أننا كتبنا العقد في دكان الحاج، فأنا لا أقرأ ولا أكتب كما تعرف، وكان لابد أن ألجأ إليه ليطمئنني لسلامة العقد قبل

أن أبـــصم. رآنا عبده القهوجي فحكي الحكاية بطريقة تشفي غليله، الغيرة لسعت قلبه ولسانه.

ــ ولماذا تهربين منه الآن؟

– أخشي أن يحبني، فيعذب نفسه ويعذبني. لابد أن أفطمه قبل أن يفوت الأوان.

ــ الآن فقط وبعد ثلاث سنوات سيبدأ الحب؟!

ـــــ ألاحـــظ ذلـــك، وأشفق عليه. اسأله إن كنت لا تصدقني، وسيقول لك إنه الحب.

كانت تتكلم ببراءة تدهشني. سألتها:

ــ وماذا كنت تفعلين طول هذا الوقت؟

ـــــ أخدمـــه كمـــا خدمني، وأرد بعض أفضاله. أنظف مكانه وأطـــبخ له وأخفف وحدته، مسكين بين زوجتيه العمياء والصماء. أحـــيانا كنت أدلّله مثل طفل، لكنني لم أقصد أن أشجعه علي شئ، هو الذي يريدني جنبه.

ــ والآن ؛ ماذا جري؟

ـــــ كما قلت لك؛ أخاف عليه مني، أخشي أن يتعلق بي بينما قلبي مع "وعدي".

ضغطَتْ علي منكبي بليونة صدرها، واشرأبت بشفتيها صوب فمـــي، لكنني تباعدت عنها وأمرتها أن ترتدي ملابسها وتنصرف.

طلـــبت منها أن تجهِّز نفسها للرحلة التي اقترحَتها، وحسب الشرط الذي حدّدَته بلسانها؛ أن تدفع التكاليف.

لبسَتْ في دقيقة، ربّما أقل، وسألتني قبل أن ترحل:

ــ ألن تقبّلني؟

ــ مع السلامة، أراك بعد غد، هنا.

ــ بخيل حتي بشهوتك يا وعدي.

***

اختفـــي العِقْـــد الثمين تحت طوق عباءتها. فرّت به، ولم أنتبه لاختفائه إلا بعد انصرافها. سألتها عنه خلال رحلتنا إلي شاطئ فايد فقالت إنها أعتبرته هدية، وأصرّت علي أنها لن تعيده مرة أخري:

ــ هديتك الوحيدة علي مدي العمر، فكيف أردّها؟!

ــ لم أُهدِك شيئا.

ــ بل تركتني ألبسه، وفرحت عيناك برؤية بريق أحجاره فوق حلمات صدري، ألا تتذكر ذلك؟!

ــ البسيه لي إذن، أريد أن أراه علي صدرك.

ــ أفهم ما يدور في رأسك يا وعدي، لكنني أنصحك أن تنسي العقد؛ لن تراه مرّة أخري. سأحفظه في علبة مبطّنة بقطيفة حمراء لأباهـــي بـــه النساء في ليالي الشتاء آخر العمر، وأقول لهن: "هو هديته الوحيدة".

***

هل كان من الضروري أن أري العقد مرة أخري؟

***

حاولت نازك أن تبدو سعيدة بالرحلة لكنني لاحظت أنها قلقة طـــول الـــوقت. كانـــت تبدد انفعالاتها في ثرثرات مُعَادة. ثرثرات مضجرة تشبه مناديل "الكلينكس" المستعملة. بالمناسبة؛ هي لا ترمي المناديل، تكحّ وتنفّ ثم تطوي المنديل وتعيده إلي جيبها.

لم أهتم بمضمون كلامها وإنما بحالة الكلام. كان صوتها يأتي مـــن مـــنطقة خفية في عمق الأعماق هادئا محمَّلا بحزن وخوف، وكانـــت عـــباراتها تتشابك دون سياق مفهوم، تنتقل من فكرة إلي أخري بلا رابط، البنت وحسين والشقة وعفاريت المقابر.

ســـألْتها عما يربكها، فذكّرتني بأن هذه هي المرة الأولي التي نخلو فيها ببعضنا في مكان بعيد عن الناس:

ــ أول مرة يا وعدي ولعدة أيام. لا أصدّق نفسي، وأخشي أن أفيق من الحلم فلا أجدك إلي جواري. أفكر طول الوقت في أن ذلك لابد أن يحدث؛ مكتوب.

أخبرتنـــي أيـــضا أن حال الحاج حسين يقلقها، لأنها تدرك أن ابتعادها عنه سيحزنه كثيرا.

هـــذه هـــي نـــازك كما أعرفها دائما؛ خطفت فلوس الشقة من

الرّجل وهربت، والآن ترفرف فوق جثة ضحيتها بأجنحة ملاك.

غطست في كلام طويل عن الحاج حسين، وأنا غصت خلفها، كنت أريد أن أري الأعماق، سألتها:

ــ لماذا لم يتزوّجك؟

ـــ دائما كان يلمّح لذلك، ويقول لي: "لو حملت كل هذا العمر علي رأسي، وجئت إليك ماشيا علي أقدامي ستين عاما من أجل أن أعيش جنبك يوما واحدا، لحمدت ربّي، وحسدت نفسي علي النعمة".

ـــ ولماذا لا تنتهزين الفرصة، وتقيمين معه في بيته مكان ماريا؟.. لاتزال لديه فلوس كثيرة، ولن تجدي أفضل منه.

ـــ كيف أعيش وفوق رأسي ضرتان تدبّان فوق سقفي بالقباقيب؛ واحدة عمياء والأخري صماء؟!.. كفاني مالقيت مع ابنتي من معاشرة عفاريت المقابر.

وغسلت يديها من دمه:

ـــ خدمته بإخلاص مقابل كل جنيه أخذته منه، لكنني لا أستطيع أن أبيع نفسي إلي النهاية؛ ملعون أبو الفلوس.

ثم صحَّحَتْ مسار الكلام بطريقتها، وألبستني عمامة المسئولية:

ـــ كيف يمكنني أن أقبَلَ ذلك بعد أن لقيتك مرّة أخري يا وعدي؟

***

ســـاعدتني رحلة الأيام الثلاثة علي إتخاذ قراراتي بهدوء، وأن أعـــد نفـــسي لمـــرحلة جديدة. أخبرت فايز فور رجوعي أن يبلغ خورشيد موافقتي علي مشاركته في الإنتاج.

***

يحيّرني فايز كثيرا.

ألاحـــظ أحيانا أنه يشحن نفسه بمشاعر ضخمة من أجل القيام بأعمـــال تافهـــة، أو شرح فكرة بسيطة لا تستحق كل هذا المجهود الكبير. يستغرق "الشحن" أحياناً عدة أيام، مع تدريبات تمثيلية علي درجات الصوت والسكتات والإيماءات.

يتأهّب للآداء بثرثرة طويلة حول الموضوع، يتحدث فيها عن مواقـــف مماثلة تصرّف أو فكّر فيها كما ينبغي أن يكون؛ ويشرح كـــيف ناقش وتحدّي وأقنع وفرض موقفه في النهاية. يستعين دائما بأخلاط أكاذيب تجعله قادراً علي حسم الحديث بفخر.

لـــم يُـــبلّغ خورشيد موافقتي علي الفور كما توقعت، لكنه ظل أكثر من أسبوع يحرّضني علي أن أشترط أن يتولّي هو أمر القصة والسيناريو:

ـــــ سيكون ذلك لمصلحتك، وسأتنازل لك عن حقي في كتابة اسمي كمؤلف للقصة، يكفيني السيناريو.

حكـــي لـــي كثيرا عن مواقف اضطر فيها للتدخل بحسم لإنقاذ خورشيد من سيناريوهات فاشلة، وتولي بنفسه ترميمها مقابل مبالغ زهيدة، ودون تسجيل أي حق أدبي له في "تيترات" الأفلام، وقال:

ـــــ أحيانا أهتم بذلك، وأحيانا لا أهتم لكثرة مشاغلي. لكن إذا اشـــترطْتَ أنت علي خورشيد أن أتولي الأمر منذ البداية فسأتفرّغ لكما، وسأدير الدعاية للفيلم بنفسي أيضا.

***

ألاحـــظ أيـــضا أنه يستغرق أحيانا في نقاشات حامية لكن بلا معنـــي ولا فائدة، وكأنه يقاتل حتي الموت من أجل لا شئ. سجّلتُ له مرة نقاشا مع موزة استمر حتي مطلع الفجر. كنت أجرّب جهازا جديدا أهدته إليّ موزة، وسجّلت بلا قصد.

بـــدأ الكلام بحوار سياسي حول "الدكتاتورية"، وكان رأي فايز أنها تنطوي دائما علي تصور خاطئ للحتمية التاريخية. قال:

ـــــ يتخيّل الدكتاتور دائما أنه ينفذُ مشيئة القدر، وأنه بمعني ما وكيل الله في الأرض، ولا خيار لشعبه غير ما يراه. كنا في شبابنا متحمـــسين للحتمية التاريخية، رأينا المسارات في اتجاه واحد، ولم نفطـــن إلـــي أن هناك بدائل دائما، ولهذا انسقنا بحماس إلي قبول الدكتاتورية.

كانـــت مـــوزة متحمسة لفكرة الحتمية كما طرحتها الشيوعية،

سألته بتحفز:

ــ هل تنكر الفكرة من أساسها؟

ــ ربما كانت هناك حتمية مؤكدة فعلا، لكن عين الراصد تتوه عــنها. لا تــري مــا هو محتم فعلا، وإنما تتوهمه في تصورات أخري. سقوط رهان علي حتمية ما لا يعني إلغاء فكرة الحتمية من أساسها.

ـــ لا تــنس يــا أستاذي أن عين الرَّاصد جزء من الظاهرة المرصــودة. أظن أنني قرأت كلاما مثل هذا لعالِم طبيعة متفلْسِف اسمه ديفيد بوهم. طريقة رؤيتنا وأدواتنا ومناهجنا هي جزء مكمّل للظاهرة التي نفحصها ونتأملها. باختصار؛ وعْينا مندمج تماما في العالم الموضوعي، هو نقطة مضيئة ومميَّزة، وهو قوة فاعلة أيضا. تصورنا للحتمية هو الحتمية ذاتها، وإلا كنا نتحدث عن افتراضات نظرية لا وجود لها في الواقع الإنساني.

ــ هذا لا يغير من الأمر شيئا، يظل هناك شئ محدود اسمه " وَعْيــنا بالظاهــرة"، وهناك مطلق كبير اسمه "العالم الموضوعي" بظواهره الكثيرة. وَعْينا جزء من كلٍّ، هو قطرة صغيرة في محيط كبيــر يحكمه قانون كليّ استكشف العلم بعضا منه، ولانزال نجهل الكثير.

القانــون الكليّ قد يفسِّر في النهاية اتجاهات وَعْينا، لكن وعْينا

يظـــل قاصـــرا عن الإحاطة به أو تقدير مساراته الحتمية. الوعْي محكـــوم بـــه ولـــيس حكما عليه. أقصي ما نقدر عليه أن نخمّن، وتخميناتـــنا فـــي الغالـــب مـــرهونة بإمكاناتنا المعرفية ومصالحنا ومناهجنا وأهوائنا، أو ما يسميه فرانسيس بيكون "أوهام الكهف" أو أوهام الذات.

ـــــ أري يـــا أستاذ أنك تخرج من فكرة الحتمية التاريخية كما طـــرحتها الشيوعية إلي ما هو أقرب للقدرية الصوفية. قدرية تشبه هذا الذي تسمّيه البنت الغجرية "المكتوب". ينتهي الأمر بنا إلي شلل الإرادة؛ الاستسلام.

ذكّرني الحوار الممل بنازك وحسين.

كانت فترة الفطام صعبة علي الحاج حسين.

أراه علـــي مـــدخل الـــدكان صامتا، محدّقا في أشياء لا يراها غيره، ينزوي داخله يوما بعد يوم. أحيانا يجلس داخل الدكان تائها أمام المرايا، أظنه يحاول أن يتذكر نفسه، كأنه أصبح مجرد صورة تذكاريـــة لـــشخص اسمه حسين. يتأمل الشبَهَ الهارب تحت تجاعيد الوجه، وخلف النظرات التي انطفأت. هل كان يحاول أن يدافع عن الشخص الذي كان؟.. وماذا كان يستطيع أن يفعل؟!

مـــستعد أن أخـــسر كـــل الناس إلا الحاج حسين، فيه شئ ما أحـــتاجه، شئ غير كل الخدمات التي حصلت عليها منه، لا أعرف ماهـــو بالـــتحديد، لكنني أحسه بشكل غامض. أظن أن علاقتي به تزيدني احتراما أمام الناس.

أزوره أحـــيانا وأسأله عن أحواله، فيشكو من آلام أظن أنه لا يحسّها في جسده، وإنما يختلقها ليداري بها همَّه وحُرْقة قلبه. أحيانا تدمع عيناه من الشوق.

***

أظنّ أن الحاج حسين رأي الحيَّة بوضوح في عيني نازك، كان يراها طول الوقت، لكنه تغافل عما رأي. أظنّه في انتظاره الطويل الآن يتذكر كل نظرة ولفتة ولمسة، ويعذب نفسه في تخيّل سيناريوهات مريبة.

حاولت أن أصحح علاقتي به، وهو تقبل ذلك، فتحَ الباب لكن دون ترحيب. لا أستطيع أن أخمّن مشاعره نحوي.

أراه عابسا أغلب الأحيان، وقد أطبقت أقواس وجهه علي ملامحه، وتشابكت مثل أساور حديدية تقيّد مودته المعهودة. لا أعتقد أن تجاعيد السن هي المسئولة وحدها عن ذلك.

يحاول أن يبدو متماسكا، وأن يحتفظ بأناقته ورصانته في الكلام. لكنه ينسي سياق الحديث أحيانا، فيظل ينقر جبينه بأصابعه ليُبعد الخيالات التي تشتت أفكاره، وحين يتوه تماما يتوجّع من آلام جسمه؛ الروماتيزم والكلي.

يفسَّر البعض حالته بزجاجة الويسكي التي لايزال يحتفظ بها في خزانة مكتبه، لكني أري ما هو أبعد من ذلك، بل وأكاد ألمس بيدي عمق آلامه. توقعت منذ البداية أن يصل إلي هذا الوضع، وربما لهذا السبب كنت أشفق عليه من نازك. أظنني كنت صادقا في إشفاقي.

حاولت أن أخفف همومه بالحديث عن نازك، لكنه ظل

مـــتحفظا. كان يفسر تباعدهما بحرصه هو علي قصّ ألسنة الناس، ويتحدث عنها أمامي بشكل محايد:

* مسكينة، تحتال علي الحياة من أجل تربية ابنتها.

* حـــين تعيش بين الموتي في المقابر أكثر من عشر سنوات فإنك لا تعرف أي أشباح يمكن أن تسكنك.

* الحقـــيقة أنها لم تطلب مني شيئا أبدا، وإنما أعطيتُ كل شئ برضـــاي. كـــان المدفن الذي تقيم فيه يوشك أن ينهارعلي رأسها ورأس ابنـــتها بعـــد أن شـــرَّخه الزلزال. دفعت ما دفعت من باب الزكاة.

كلامـــه بهـــذه الطـــريقة لا يخفي شجنه، ألاحظُ ذلك في إيقاع صـــوته، وإيماءات جسده. كان يبدو مثل ممثل عجوز متعب علي خـــشبة مـــسرح، يـــؤدي دور فـــارس نبيل، ووجهه مُثقل بأصباغ ومساحيق. أحيانا يبدو المشهد هزليا.

عرضْتُ علي فايز مرة اخري حكاية حسين ونازك كموضوع لفيلمنا، وهو تحمّس هذه المرة.

بــدا جاهــزا لتنفــيذ أي فكرة، لكنه أضاف من عنده "توابل" ســينمائية تجعــل الفيلم أكثر جاذبية؛ خمّارة وراقصة وسط منطقة مقابــر "البساتين"، وصراع بالسكاكين بين المتشردين علي الإقامة فــي "الأحواش". علاقة حب بين الراقصة وأحد تجار الخان، تنتهي بــسحب آخر جنيه من جيبه، واضطراره للعمل خادما في الخمارة، والسكن في المقابر.

عــرض الفكــرة علي خورشيد، وطرح أكثر من اسم للفيلم، "بساتين العذاب"، أو "غرام بين العفاريت"، أو "نزاكا وكاكا".

تــركته يرتب شغله كما يشاء، لكني طلبت منه أن يبدّل أسماء الشخصيات:

ــ أي أسماء، إلا نازك وحسين.

***

انتهي التصوير خلال شهور، وعاد "الأرنب" الذي شاركت به

فـــي الإنـــتاج ومعـــه نصف أرنب آخر. حقق الفيلم نجاحا تجاريا مقبولا، لكن بعض النقاد هاجموه. قرأت عناوين كثيرة في صفحات الفـــن، لكـــن ليس علي النحو الذي وعدني به فايز، عناوين مثل: "نزاكا وكاكا.. خطوة أخري علي المنحدر".

لم أكرر التجربة إلا بعد ثلاث سنوات، كانت القفزات المتتابعة في سعر الدولار تغريني بأرباح أكبر.

ساعدتنا موزة في تسويق الفيلم خليجيا، لكنها لم تكن سعيدة به لأن فايـــز أفـــرط في التوابل السينمائية، وحوّل مأساة الفقراء الذين يعيشون في المقابر إلي مليودراما غرامية.

صـــارحتني برأيها بعيدا عن فايز، ووعدتني أن تشارك معي في الإنتاج لو فكرت في عمل فيلم عن جدّي:

ـــ لابد أن نفكر في فيلم يجسد القلق الذي نعيشه، العذاب الذي نكابـــده بحـــثا عن معني لحياتنا، المستقبل الذي نندفع إليه دون أن ندري شيئا عنه وكأننا ننحدر إلي هاوية.

كانت موزة تزداد قلقا وتوترا يوما بعد يوم، وتحاول أن تغطي همـــومها الحقيقية بمناقشات ملتهبة في السياسة والأدب. ساقها ذلك إلي خلافات كلامية حادة مع أغلب أصحابها حتي فايز. أكاد أكون الاستثناء الوحيد ، وربما يكون السبب الذي خمّنته هي صحيحا:

ـــــ أنت لا تختلف مع أحد، لأنك ببساطة لا تهتم بأي شئ لا

يخصك، ولا تري إلا نفسك.

أشم في كلامها رائحة نازك.

أعرف أن علاقتهما مستمرة بل وتزداد اقترابا، بينهما تفاصيل كثيرة؛ نَتْف ووشْم وتدليك وقراءة طالع، ومخدرات أيضا. أستطيع أن اخمّن ما يدور بينهما من كلام.

لـــم تعد موزة تلك الفتاة المنطلقة التي عرفتها قبل خمسة عشر عامـــا، صارت امرأة مثقلة بهموم العمر والغربة وخيالات الشعر. تـــبدو أغلـــب الوقت مجهدة وقلقة، وقد تناثرت تجاعيد خفيفة حول فمها.

استقرَّت في شقتي المفروشة في المهندسين. جدَّدَتْ أثاثها علي نفقـــتها وبسخاء، وتعيش حياتها يوما بيوم بعيدا عن بلدها بلا حجّة واضحة، لادراسة ولا عمل. تصلها مصروفاتها من أهلها بانتظام، ولا تـــزورهم إلا نادرا. لا أفهم جيدا معني هذا المنفي الإختياري، ولا مغزي قبول أهلها لهذا الوضع. هل هو جنون الشعر؟

أظـــن أنهـــا لا تعـــرف ماذا تريد بالضبط. تحدثني أحيانا عن حبيبها حفيد العبيد فأتوه في كلامها؛ لا أعرف أهو حب أم كراهية. هي نفسها تسأل: "هل يرفضني، أم يخشي أهلي؟!".

***

يقولـــون إن الأربعـــين سن اليأس للمرأة، لكنها بالنسبة للرجل سن الحكمة، وأظن ذلك صحيحاً.

ألاحظ أنني منذ تجاوزت الأربعين أصبحت أكثر ميلاً للتأمل، وأننـــي أطـــرح علي نفسي أسئلة لم أكن أشغل نفسي بها من قبل. سؤالي الأهم: "وماذا بعد؟"

أظن أن في داخل كل إنسان كائنا آخر متأملا، يستقبل الأمور بـــلا حزن وبلا ابتهاج، ويعيد فحصها في خفاء النفس. لا نحس به فـــي البداية، لكنه ينتفخ ويكبر مع الأيام. نكتشف في مرحلة ما أنه يحتل داخلنا مساحة أكبر مما نظن، يكاد يملأنا، وأن الشخص الحي مجرد قشرة خارجية.

أكـــتب تأملاتـــي وأفكـــاري ومذكراتي أحياناً. أعرف أن ذلك مـــضيعة للوقت، فأنا بطبعي أحب أن أعيش حياتي بعمق وإحساس حـــي، لكنني أجد في الكتابة شيئا ما يغريني. ربما كان ذلك بتأثير علاقتـــي الجديـــدة بالـــسينما، وربمـــا كانت مناقشات فايز و"موزة وأخواتها" أحد الدوافع؛ مجرد عدوي، انفلونزا ثقافية.

***

تـــزداد نـــازك نـــزقاً وهي تتمسك بالجذوة الباقية من أنوثتها، وتحـــاول أن تحاصـــرني بجـــنون. صـــارت أكثر اهتماما بنفسها ومظهرها؛ كُحل وصبغة شعر وعطر، وملابس أكثر نظافة وأناقة.

حتـــي طـــريقة الكلام اختلفت، تبالغ الآن في الليونة والدلال. ينفرط الكلام علي شفتها السفلي قبل أن يمسكه سمعك،.وتفصل بين

الحروف زفرات خفض ولين مُغْوِية، يبدو صوتُها أحياناً كأنه فحيح أفعي: إيه.. أوه.. آه.."

أظــن أنها تحاول أن تكون أكثر مهارة في الشوط الأخير من لعــبة شبابها، لكنني أدرك أنها ستظل محكومة بنفس البرنامج الذي تعــوَّدَتْ علــيه وإن اخــتلفت طــريقة الأداء؛ تُقبل عليك من أجل مــصالحها، وتحتــشد بكل مغناطيسيتها لتجذبك إليها، وفجأة تدير ظهــرها بفــتور وتسحب كل مغناطيسيتها، تتركك تسقط في هاوية الحيرة دون أن تعرف ماذا جري.

أتعجــب لامرأة تخطّت الأربعين؛ كيف يمكن أن تثق إلي هذا الحد بقدرتها علي أن تصعق رجلاً؟!.. تلك أوهام نازك، وأظن أنها تراهن علي مهارات اكتسبتها من علاقاتها الواسعة بالرجال.

أتعجّــبُ؛ كــيف لا تدرك حتي الآن أنني عجينة أخري غير الحاج حسين.

كانــت تفسر اهتمامها بنفسها بأن البنت كبرت ولابد أن يكون مظهرها كأم مشرّفا، وتقول:

ــ بعد سنة ستدخل نور الجامعة، وأصير أنا "أم الأستاذة".

لا أعــرف كثيراً عن تفاصيل ذلك الوهم الذي تطلق عليه اسم "تور"، لم أر البنت، ولا أعرف عنوان مسكنها حتي ذلك الوقت.

هــي كانــت حريــصة علــي هذا الغموض، وأنا لم أفلح في

استدراج الحاج حسين إلي أي كلام في الموضوع، كان يبدو راغبا في نسيان الأمر كله، ما يخصّه وما لا يخصّه.

***

عمــوما كــان الحــاج أكثر صمتاً وحزناً في الفترة الأخيرة، ويتــشاغل عــن كلامــي أحيانا بفحص أحجاره الكريمة بالعدسات المكبرة.

يطرق طويلاً حين أحدثه عن نازك، ثم يرفع عينيه ويحدق في وجهــي صامتا، كأنه يتهمني بشئ لا يريد أن يفصح عنه. أظن أنه يحمّلني مسئولية ابتعادها عنه.

أستطيع أن أتفهّم هواجسه وأحزانه، لكني لا أقدر أن أفعل شيئاً من أجله.

ألاحــظ أن تجارته تتدهور بعد أن فقد تلك الجاذبية التي كانت تجعلــه قادراً علي اصطياد الزبائن. نقشت الشيخوخة أقواس وجهه بتجاعيد متراكبة، جعلته يبدو واجماً أغلب الوقت.

***

زادت أحواله سوءاً مع كساد الموسم السياحي.

طــال الكساد الجميع، لكن تأثيره علي الحاج حسين وأحجاره الكريمة كان أقسي.

خفّت الحركة في الخان بعد الانفجار الذي جري قرب المتحف

المـــصري وقتل تسعة من السيّاح، وأحداث العنف التي وقعت في الأقصر ومات فيها ثمانية وخمسون سائحاً.

كـــان المـــناخ ينذر بمزيد من العنف، فهرب السياح، وكسدت التجارة في الخان.

نَـــصحْتُ الحاج حسين أن يعتكف في منزله حتي تهدأ الأمور وتنـــشط الـــسياحة مـــرة أخري. لكنه استهان بكلامي، وقال إنه لا يـــستطيع أن يـــبعد يوماً واحداً عن الخان الذي ترفرف فيه أرواح أجداده. وَوعَظنِي بلهجة قاسية:

– المسألة ليست مجرد مكسب أو خسارة، والدنيا ليست مجرد فلوس يا حبيب أفندي.

ونفخ في وجهي:

– أحيانا تكون الفلوس لعنة علي صاحبها.

***

حكـــي بهذه المناسبة عن رجل تمني أن يتحول كل شئ يلمسه إلـــي ذهـــب، ورفع الملاك طلبه إلي ربه، فقال له: "أنصفت عبدي لكنه ظلم نفسه وجلب عليها اللعنة، انزل فحقق دعاءه، واتركه لحاله الذي تمنّاه لنفسه".

حلّـــت بـــركة الـــذهب بيد الرجل، وكان أول شئ يلمسه هو جـــسمه؛ رجلـــه، صدره، رأسه. كل لمسة تحوّل عضوا من جسمه

إلي ذهب، حتي لم يبق لحما حيا إلا العين واللسان واليد ذات اللمسة الساحرة. أدرك أنها لعنة.

كان الناس يحسدون غناه وذهبه، لكنهم يحذرون الاقتراب منه. يتجنـــبون ملامسته، ويفرّون من أمامه. وهو واقف في مكانه مثل لعـــبة معدنية عملاقة، ينظر بعينيه حال غيره، ويتحسر بلسانه علي حاله، ويشير بيده الحيّة في كل الاتجاهات.

فهمت؛ كان حسين يلمزني بالكلام. وكان ذلك آخر كلام سمعته منه.

***

رفض ووعظ وقال ما قال، لكنه غاب في النهاية عن الخان.

غـــاب الحـــاج حـــسين عن دكانه طويلا، وعرفت أنه أصيب بالزهايمر؛ نسي كل شئ حتي الاسم؛ المفتاح.

زرتـــه في بيته، ووجدته جالسا بين زوجتيه الصماء والعمياء، ومعهم عجوز من أقاربه، يرعاهم، ويدبّر أمورهم.

ربّتُّ كتفه، وقلت له:

ــ أنا حبيب الله.

دارت تـــروس ذاكرته علي الفاضي، وعادت بأصوات غريبة، أصوات بلا معني، كلام بدون كلام، صمت.

قبّلت جبينه وانسحبت، تركته في صمته بين الصماء والعمياء.

***

أن تكون بلا ذاكرة فذلك يعني أنك غير موجود تقريبا.

أتذكـــر اجتهادات مدرسية في تعريف الانسان؛ حيوان ناطق، حـــيوان اجتماعـــي. أظـــن أن الأكثر حسما للتعريف هو الذاكرة؛ الانسان حيوان ذو ذاكرة.

هل يعني ذلك شيئا جديا؟

الذاكـــرة، ذلـــك الاجهـــاد الساطع، تعني أنك لاتزال موجودا، لاتـــزال حـــيا. عندما تنطفئ ذاكرتك تتلاشي معها، وعندما يصل الامـــر إلـــي درجة نسيان الاسم تكون قد وصلت إلي أحرج نقطة؛ عدت إلي الحيوان مرة أخري. يبقي أن ينطفئ جسدك، ينسي حتي شفرته الداخلية، شفرة الطبيعة؛ يموت.

أغمـــض عينيك وحاول أن تتأمل نفسك بلا اسم، أن تنظر هوّة النسيان. حاول مرة؛ الهوّة.

***

حـــزنت نازك لمرض الحاج حسين، لكنها لم تحمّل نفسها أي مسئولية، وحصرت فهمها للأمر في إطار "المكتوب" :

ــ كل شئ مكتوب من أول الدنيا، والأمر نافذ علي الجميع من إنسان وطير وشجر وحيوان.

غسلت يديها من دم الحاج حسين، وقالت أنها ابتعدت عنه بعد أن قـــرأت فـــي خطـــوط كفـــه علامات ما جري له. وصارحتني بحيرتها:

ــ أقول الكلام بلساني والناس تصدّق، لا أعرف وقتها هل ما أقـــوله حـــق أم فلـــتات لسان، لكن ما أقوله يصدق دائما، تدهشني نفسي.

أحـــذرُ من نازك دائما، لكنني أفكر في كلامها أحيانا. أستعين

بمعلوماتي في علوم الطبيعة والفلك والبيولوجيا وغيرها في محاولة فهم تلك القدرية الصارمة التي تحكم المصائر.

***

قالت ما قالت، لكنها ظلت حزينة علي حسين.

زارته معي مرة، وتحسّرت علي حاله:

ــ الشريط انمسح، الملائكة مسحوه بأمر ربه، وليس بيدنا شئ نفعله من أجله.

عندما حاولتُ أن أذكّره باسمائنا نبهتني بتلقائية إلي أن ذلك لا يفيد:

ـــــ الآن هو في دنيا غير الدنيا، له اسم غير "حسين" ولنا في دنياه أسماء أخري، ربّه أعلم بحاله.

وفاجأتني بكلام غريب:

ــ دودة التوت تموت في شرنقة حريرها، وبعدما تموت تعود وتحيا فراشة، ولا يعلم ما في الكتاب إلا رب الأرباب.

أزعجتني أحلامي في تلك الفترة، كانت قليلة جدا لكنها مفزعة. تطفــو علي سطحها تلك الذكريات التي كانت تراودني دائما بشكل غامض. الآن أراها وأحسها بوضوح؛ رائحة الحريق، والعجوز ذو العينين الخضراوتين.

تــصاحبني فور يقظتي معرفة لا أستطيع أن أعبر عنها، ولا أدري من أين تأتي، لكنها تفسر لي ما أري، في الحلم طبعا.

الــرجل الذي أتذكره في باطن أحلامي هو أنا، أصحو متأكدا من ذلك.

أصــحوا محملا بكل المشاعر التي يحملها رجل في مثل هذا الوضع؛ جالس علي كرسي بالمقلوب، وشاخص بلا حركة. جسمه يتشقق كالفخار، وتتصاعد منه روائح حريق.

هــناك مشاعر أخري يحملها الرجل الصامت، تأتي من عمق حــياته. كانــت المعــرفة التي تصاحبني تؤكد لي أنني عشت هذا الموقف، أصحو فزعا، أتحسس نفسي، وأتمسك باسمي؛ "الأفندي".

***

"الأفندي"؛ هذا أنا بالضبط.

أعطـــيت نفس لاسم اخترعتْه المصادفة، كسوته لحمي ونفثت فـــيه أنفاس حياتي ليصبح شيئا مميزا. اسم وهمي ؛ لا وجود له في ســـجلات الأســـرة، ولا في عقود الأملاك والشركات، لكنه يفرض وجوده بقوة، ويحظي بأرفع الألقاب؛ "البك" و"الباشا" .

أظـــن أنني أُشبه حمروش من زاوية ما؛ هو أيضا كان وهما علـــي الأرجـــح، لا وجود لاسمه في شهادة ميلادي، ولا في لوحة الأسماء علي مدفن العائلة. لا يعرف أحد في أي زمن عاش، حتي عمي لا يعرف.

لا أفكـــر فـــي التخلـــي عن "الأفندي" أبداً، صنعت هذا الاسم بجهـــدي وتعبي، ولا يناسبني أي اسم أو لقب آخر، ماذا يعني لقب "الدّكر" بالنسبة لي مثلا؟!

أتمـــسك بنفـــسي، وأحـــنّ إلي كل التفاصيل التي رافقت بناء اســـمي، بـــل مازلت احتفظ بالاسم والمهنة في بطاقة التعريف كما كتبته أول مرة؛ "حبيب الله الأفندي.. مرشد سياحي".

أحـــن أحيانا إلي تلك الأشغال الصغيرة التي بدأت بها مسيرتي فـــي الخـــان، أفعـــل ذلـــك في نزوات متباعدة، فأطارد السياح في المطاعم والفنادق متوددا:

ــ كان آي هلب يو؟

***

آخــر مــرة فعلــت فيها ذلك أحرجتني السائحة، وردت علي سؤالي بحسم بارد:

ــ ايفن إن يور كانتري؛ آي كان هلب يو، يو كان نوت.

وكرّرتها بالعربية:

ــ حتي في بلدك، أنا التي أستطيع أن أساعدك، أما أنت فلا.

أديت لها التحية العسكرية، وسألتها:

ــ من أي بلاد أنت؟

لم ترد، نظرت إلي بازدراء، وابتعدت.

***

يبدو أن الدنيا تتغيّر حولنا دون أن ننتبه لذلك.

***

نبّهني فايز إلي أن كل شئ يتغير حتي نحن، وأنني لم أعد شابا قادرا علي إغواء السيّاح، والنساء خاصة. قال :

ــ أنت الآن كرش وشعر أبيض، ماذا تفعل بك المرأة؟!

تنبّهت إلي أنني أقترب من الخمسين وأن القرن الذي ولدت فيه يلفــظ أنفاسه، وسيحتفلون بدفنه في حفل موسيقي مبهر تحت سفح الهرم بعد عدة شهور.

أثار ذلك تأملاتي، وأسلمني إلي حالة من الشجن دفعتني لكتابة

مذكراتي.

***

جلست إلي الكمبيوتر ساعات طوال.

***

كان بعض ما كتبت محرجا جداً، لذلك لم أعرض أوراقي علي فايـــز، ولا علي "موزة وأخواتها". اكتفيت بتأمل نفسي علي الورق، وكان الأمر معذباً.

عمـــوما كـــان فايز مشغولا بالدعاية لفيلمنا الثاني الذي تأخر عرضه. وظل في الصناديق أكثر من عامين في انتظار الدور.

لـــم يـــستمر الفـــيلم فـــي دور العرض الكبري طويلا. سقط جماهيريا وفنيا، وانتقل بسرعة إلي سينمات الدرجة الثانية.

***

أرهقنا فايز بتكاليف الدعاية، ولم نسترد مصاريفنا بالكامل، لا أنا ولا خورشيد، ولا موزة التي شاركتنا في الإنتاج.

اســـتوحي فايز قصة الفيلم من حكايات جدي حمروش؛ وكانت حـــول عاشـــق يـــبحث عن امرأة التقاها صدفة في شبابه في أحد الملاهـــي، واكتـــشف بعد فترة أنها ملأت كل أحلامه، وعندما بدأ البحث عنها اختفت تماما.

فـــي الفـــيلم رحلـــة بحث طويلة عن المحبوبة، وكلما اقترب

العاشـــق مـــنها يكتـــشف أنها امرأة أخري غير التي يبحث عنها. تكـــررت المحاولـــة، والتقي الحبيبان في نهاية الفيلم ولكن بعد أن أصبحا عجوزين محطمين لا يقدران علي شئ.

لـــم تفلـــح دعاية فايز في وقف الهجوم علي الفيلم، وكتب أحد الـــنقاد مقالا ناريا بعنوان: الحب المستحيل.. وصفة جديدة للفشل". أجهز المقال علي الفيلم، وضيّع أي فرصة لتقليل الخسائر.

حمّل خورشيد المسئولية لفايز، وقال إنه شحن الفيلم بأفكار لا يستوعبها المتفرج العادي، الذي يبحث في السينما عن ضحكة تبدد همّـــه. لكـــن مـــوزة رأت أن العـــيب الأساســـي يكمن في مشاهد الخمارات والملاهي التي أسرف فيها الفيلم، وصرفت ذهن المشاهد عن المضمون العميق.

دافـــع فايز عن نفسه بإلحاح، وحاول أن يقنعنا بأن فكرة الفيلم أعلـــي من إدراك الصحافة الفنية، وأن مقص الرقابة أربك السياق، والـــنقاد تجاهلوا المغزي السياسي تجنبا للمتاعب، والمخرج الشاب الذي اختاره خورشيد أضعف من أن يتعامل مع فكرة بهذا المستوي الراقي. وقال :

ـــ الفيلمُ يعبِّر عن أزمتنا جميعا، ففي أوقات ما تصبح الأوهام أقـــوي مـــن الحقائـــق، وتصبح الأشباح أكثر تأثيرا في الواقع من الأحياء، وهذا ما نعيشه الآن.

***

لا أهـــتم بالنقاش كثيرا، المهم النتيجة. أقلقني أن هذه أول مرة أخسر فيها، انزعجت جدا وتشاءمت؛ أخشي أن تكون مجرد بداية.

زاد انزعاجي مع انقطاع نازك المتكرر.

أعــرف أنهــا مــشغولة بــزبائنها؛ انفتحت أبواب السعد لها، وأصبحت قارئة كف معروفة في الوسط الفني.

بــدأت نشاطها في جلسة للإعداد للفيلم في بيت موزة. فرضت نفــسها علي الجميع بمهارة، وحوّلت الجلسة إلي حلقة لقراءة الكف والفنجان وكتابة العناوين وأرقام التليفونات.

الآن تنتظــر مكالمــات الزبائن علي الموبايل الذي أهدته لها مــوزة؛ طلــبات لقراءة البخت، وربما لأغراض أخري، لا أستبعد شيئا.

طال غيابها فاتصلتُ بها ذات ليلة، كانت تلك أول مرة. فَزِعَت من نومها، فاعتذرتُ لها:

ــ لم أتوقع أن تكوني نائمة.

ـــ لو طلبتني وأنا في الموت لقمت لك، فكيف لا أقوم لك من النوم؟!

وسألتني:

ـ هل أنتَ بخير؟

ـــ بخيـــر، أردت فقـــط أن أسألك عن الحاج حسين، أتجنب زيارتـــه منذ شهور طويلة لأن حاله يؤلمني كثيرا، ويثير في نفسي أفكارا سوداء.

ـ لم أره منذ زرناه سويا، ثم إنك الأقرب إليه، ولديك سيارة.

وعاتبتني:

ـ ظننتك ستسأل عني.

قالت إنها سعيدة لأن هذه أول مكالمة تتلقاها مني، وشجعتني:

ـ نوَّرت الموبايل يا وعدي، ولو أردتني في أي وقت رِنَّ لي رنَّة.

***

ظهـــرَتْ في الخان بعد ذلك بشهر، زارتني بسرعة في مكتب الصرافة لتبديل مائة دولار، وأخبرتني أنها مشغولة جدا بابنتها:

ـــ نالت الشهادة العالية، وستعمل مدرِّسة في حضانة أطفال، ربنا يحرسها.

بـــدت مبـــتهجة وجذابة، رغم أن الخمسين عاما التي عاشتها كانـــت تعـــيد تشكيل قصاقيص ملامحها علي نحو مختلف، وتخمد رائحـــة شـــهوتها الفـــواحة. تكسو وجهها الآن لمحة غامضة مثل ساحرة، ويزداد صوتها عمقا كأنه يوغل في قِدَم الرعشة الأولي.

عاتبتها علي غيابها الطويل، وصدمني جوابها:

ــ من منا يسأل عن الآخر؟.. أنت مشغول بنفسك، وعندك ما يكفــيك، وحولك من يسأل عنك ويسعي إليك دائما. أما أنا فوحيدة، انخلعت أظافري وأنا أتسلق صخور الأيام لأربّي ابنتي.

ــ لكنك لا تسألين حتي عن الحاج حسين.

ــ وبماذا يفيده السؤال بعد أن نفذ فيه أمر ربّه؟

كانــت تتصرف دائما بهذه القسوة، لكن الجديد في الأمر الآن أنها تصارحني بلا خجل.

***

أظن أنها أيضا كانت تراني علي نحو مختلف.

***

أفكــر في تلك التغيرات المحتومة التي تطرأ علي الجسد، أفهم المسألة علميا، لكن إحساسي بها يربكني. أتساءل عما إذا كان هناك شــئ يمكــن أن يتمسك به الإنسان حتي النهاية. أمضي أحيانا نحو السؤال الأصعب؛ أي نهاية؟

طرحت أسئلتي الصعبة علي فايز وموزة.

كان جواب فايز مُضجرا. عنده معلومات كثيرة، لكنه لا يملك معرفة يطمئن إليها. زَحَم رأسي بأسماء ونظريات وأديان وتأملات كثيــرة من الشرق والغرب، ثم نفض يديه من كل ما قال، وأعادني

إلي نقطة الصفر:

ــ الكلام كثير، وكلّه مجرد كلام.

وذكّرني بدراستنا الجامعية:

ــ لا تنس أننا درسنا سويا في كلية العلوم، وعلينا ألا نؤمن إلا بما يمكن أن يخضع للتجربة والاختبار.

يتمسك فايز بعدميته كأنها اكتشاف مبهر، ويزداد أسي حين يَسْكر.

أظن أنني أنطلق من نقطة أفضل منه، وهي أن المادة لا تفني، وأننا لا يمكن أن نضيع سدي، وسنظل مندمجين في الكون بشكل أو بآخر. لكن السؤال الصعب الذي يظل معلقا بلا إجابه هو: هل يستطيع وعينا أن يحدد المصائر؟.. أن يتحكم بها؟

نبّهتنا موزة إلي أن الإجابة قد تكون عند المرأة الغجرية التي تتحدث دائما عن "المكتوب" وتستطيع أن تقرأه أحيانا، وقالت بحماس:

ـــ لنتواضع ونسأل نازك، ولنفكر في كلامها بجدية، فربما وجدنا الإجابة.

فكرة شاعرية خرقاء، لكنني لم أرفضها، بل تحمست لها لأسباب تخصني. كنت أريد أن أري نازك، أن أستدرجها دون أن أفضح سعيي لذلك. فوّضت موزة في ترتيب اللقاء، واشترطت أن

يقتصر علينا نحن الأربعة.

***

أعــددنا نــازك للحديث في الموضوع بفقرة طويلة من قراءة الكف والفنجان، وتولي فايز بنفسه لف السجائر لها لتسخين دماغها. قــرأتْ أكــفَّ الجميع لكنها توقفت عندي، رفضت يدي الممدودة، وذكّرتني بكلام قديم:

ـــ كمــا أخبــرتك من قبل؛ حزنك أطول من عمرك. كلام مكتوب وواضح علي الجبين، والآن آن الأوان، خوفي عليك.

نبهــتها إلــي أن كلامهــا يعني أنها تتمني لي السوء، فدمعت عيناها وهزت رأسها بأسي:

ـ علي جثتي يا قلبي؛ وهل أتمني السوء لنفسي؟

لــم أفهــم معني جملتها الأخيرة، ولا مغزي هزّات رأسها. لم استطع أن أخمّن ماذا كانت تنفي بالضبط.

هي كررت الكلام:

ـ الآن آن الأوان؛ مكتوب.

تدخلت موزة لإعادة الحديث إلي مساره المرسوم:

ـ ماهو المكتوب يا نازك؟

ـ هو ما لابد أن يحدث.

ـ ومن كتبه؟

ـــ كتبه من كتب الورق من أول صفحة.

ـــ ومن يستطيع أن يقرأه؟

ـــ هو في قلب كل حي، وفي خياله أيضا؛ خياله القديم المولود به من بطن أمه، وإذا صدَّق الإنسان خيالاته يقرأها ويعقلها.

ـــ هل أستطيع أن أقرأ المكتوب مثلك؟

ـــ إن صدّقت نفسك.

ـــ وهل تصدقين أنت نفسك؟

ـــ كيف لا أصدقها، وهي طول العمر راضية بالمكتوب.

هلّلت موزة للكلام، وقالت إنه لا يخلو من أفكار عميقة. واستقبله فايز ببرود، ووصفه بأنه شرح شعبيّ فج لفكرة مطروحة في الكتب بشكل أكثر عمقا، وقال:

ـــ فكرة من بين آلاف الأفكار، وموجودة من قديم الزمان.

***

أنا كنت مشغولا بالتفكير في تلك الفرصة النادرة؛ الجسد.

كنت أحاول أن أنبض.

***

الآن يخذلني نبضي.

حرصت علي أن تصحبني نازك إلي مسكني في نهاية الجلسة، وسألتها في الطريق:

ــ لماذا لا تزورينني الآن كثيرا؟!

ــ البنت كبرت وصارت مدرّسة، الناس يسمونها "مس نور"، وأي كلام يمسني الآن يجرحها.

ــ لكنك مازلت تدخنين الحشيش، وربما تمارسين أشياء أخري لا تشرّف البنت.

ــ لا تذهب بأفكارك بعيدا، الشقاوة كانت زمان. كنت مكسورة الجناح وأساير الجميع لأربي ابنتي بسلام، أما الحشيش فهو الوسيلة الوحيدة التي أعرفها لنسيان القسوة.

ــ ألم يساعدك أبوها أبدا؟

أشاحت بوجهها عن السؤال، وشتمت بصوت خفيض:

ــ الواطي.

ــ من الضروري أن تخبريه.

ـــــ وما فائدة ذلك الآن، البنت كبرت ووصلت إلي بر الأمان. هــل أقــدّمها له هدية علي طبق من ذهب بعد أن أهلكت نفسي من أجلها؟!

ـ ألا يعرف أحد من أبوها؟

ـــ الوحيد هو الحاج حسين، عرف كل شئ دون أن أخبره، ولا أدري كيف.

ـ كنت أظن أنني أقرب إليك من حسين.

ـــ كـــنتَ دائما أقرب إنسان إلي قلبي، لكنك لم تفهم أبدا ولم تصدق.

***

أفكر أحيانا في أنها لو كانت مختلفة قليلا لتصرَّفتُ تجاهها منذ الـــبداية علي نحو آخر، لكنني كنت أراها دائما امرأة مبتذلة، ماكرة وقاســـية، وتدفـــع أي ثمن من أجل مصالحها. أظن أن هذا مازال رأيي.

***

دخنت نازك كثيرا تلك الليلة.

ســـبح الدخان في فضاء الغرفة، وانعقدت حلقاته الزرقاء قرب هالة القديسين في شباكي المستدير. نالني شئ من الخدر، لكنني لم أغامـــر بفـــتح الشباك خشية أن تتسرب الرائحة الكثيفة إلي أنوف الجيران.

حاولـــت أن أســـتجمع نبـــضي، لكـــن شيئا ما كان يربكني. احتـــضنتها طويلا، وهي اكتفت بذلك. أدركت بعد فترة أنها تبكي،

سألتها عما يحزنها، فجاوبتني بآهة طويلة:

ــ آه يا وعدي؛ المكتوبُ غَلبَ المطلوبَ.

مسحْتُ دموعَها عن خدي، وطلبت منها أن تحكي لي شيئا من حكاياتهـــا القديمة. قالت في البداية إنها حكت كل ما لديها ولم يعد عندها مزيد، لكنها بدأت تعيد الحكايات بعد قليل، لم يكن هناك شئ آخر يمكن أن يشغلنا عن الكلام.

ظللـــت طويلا أتأمل قصاقيص ملامحها وهي تتشكل بأكثر من وجـــه في الضوء الشحيح، رأيت وجوها كثيرة في تبدلات غامضة ومخيفة.

***

كانت نازك تحكي، وأنا أحاول أن أتذكر معها:

ـــــ فـــي أول الأيـــام صاد "الواطي" "ستنا". سلخ جلدها حيّة وفَرشَه علي الكرسي. قعد عليه وسط الناس والحراس واستكبر. في الـــيوم الثاني قامت ستنا من موتها، دبت حلاوة الروح في جلدها، التصقت في جسمه بنارها. ظل هو مربوطا بالكرسي، وهي تلسعه بنارها.

الليل الثالث كان ليلة الحساب.

مر الملائكة علي القصر، وبينهما "ناكر" و"نكير". جلسوا علي قبته يستريحون من تعب النهار، وكلّه كان بالأمر.

هــبت زعابــيب أمــشير، فقال ناكر لنكير تعال ننزل تحت، ونتــسلي بالفرجة داخل القصر حتي تهدأ الريح، فنواصل الطيران والتسبيح.

وفي الديوان رأي الملاكان "الواطي" جالسا علي الكرسي وهو يرتجف بين حالين؛ ثلْج نفسه، ونار الكرسي المفروش بجلد "ستنا"، فتحيّرا في أمره.

قال ملاك لملاك:

ــ ما ذنبه؟

ــ حرمه ربُّه من نعمة تذوق الجمال، فلما رآه كفر به وتجبّر عليه، لذا حق عليه الغضب والعقاب.

ــ علي أي ذنب نعاقبُه، وهو لم يحرِم نفسه بنفسه، وإنما الأمر لربِّه.

كــان الملاكان من أهل الخصام، فطال بينهما الكلام والجدال، مــلاك يــضحك علــيه، وملاك يبكي لحاله. وعلا بينهما الضحك والــبكاء حتي سمعهما إخوانهم الجالسون علي القبة، فنزلوا وقالوا لهما:

ـــ لا يضبط الحسابَ إلا ربّ الأرباب، فاصعدا اليه واستفتياه في أمره.

خطفه الملاكان من بين حراسه وناسه. حملاه بكرسيه، وطارا

إلي فوق. وهناك وضعاه علي المفترق ما بين جنته وناره، ثم دخلا يعرضـــان أمـــره علي ربه. تركاه ونسياه، كأنهما نسياه، وكلّه كان بالأمر.

هو لايزال في مكانه، وهما في جدالهما إلي اليوم.

طمأنتني نازك بمكالمة قصيرة علي وصولها للبيت بسلام.

كنت متعبا ومشوشا بتأثير المخدر الذي نفثته أثناء وجودها في مسكني، لكنني واصلت السهر حتي قرب الفجر، كان لدي ما أسجله علي الكمبيوتر.

***

أيقظنـــي رنين الموبايل قرب التاسعة صباحاً، تجاهلْته مرتين، واضطررت للرد في الثالثة:

ــ ماذا تريدين يا نازك؟!

ــ نازك ماتت.

هــو رقــم نازك وصوتها بالضبط. غاظتني الدعابة السخيفة، فطلــبت منها أن تضع رأسها تحت صنبور ماء لتفيق من خدرها، ونهرتها:

ــ ليس هذا وقت هزار يا نازك. سهرت حتي الصباح، وأريد أن أنام الآن.

أنهيت المكالمة، لكن الموبايل عاود الرنين، وبادرني الصوت:

ـــ أنا نور ابنة نازك، وأمي ماتت.

كان صوت الباكية جادا، لكنني لم أصدق.

ـــ ماذا تريدين الآن؟

ـــ وجدت رقمك علي الموبايل، كان آخر مكالمة لها. الحقنا يا أنكل أرجوك، نحتاج مساعدتك.

تنبّهت إلي أن حولها أصوات لغط وصراخ، سألتها:

ـــ من أنتِ؟

ـــ اسمي نور، أنا ابنة نازك.

***

كتبتُ العنوان وذهبت بسرعة.

عـــرفت أن رجال النيابة والشرطة في غرفتها، كانوا يرسمون دائرة بالطباشير حول الجثة، ويعاينون المكان.

فـــضّلت الانتظار في مقهي قريب. أخبرني الجيران أن طبيب الـــصحة أبلـــغ النيابة بوجود شبهة جنائية في الوفاة بعد أن لاحظ زُرقـــة الجلـــد أعلي منطقة الصدر والوجه، ورجح بعضهم احتمال الانتحار.

***

حملـــوا الجثة إلي المشرحة، وتبعتها بسيارتي ومعي نور. هي أصرّت علي ذلك، وكانت فرصة لأسألها:

ـ ماذا جري؟

ـــ كانت أمي شاردة ومتعبة حين عادت قبل منتصف الليل. أجرت مكالمة تليفونية قصيرة، ونامت علي الفور. أيقظتني مرتين لأسقيها عصير ليمون، كانت باردة الأطراف وتتنفس بصعوبة. وجدتها في الصباح مفتوحة العينين لكن بدون حركة، ماتت.

ـــ هل تظنين أنها أنتحرت، تناولت سما أو جرعة زائدة من دواء مثلا؟

ـــ ولماذا تنتحر؟.. لم تكن أمي من هذا النوع بل كانت قوية دائما، ولم تكن هناك مشاكل تضايقها في الفترة الأخيرة.

كانت دموع نور تنحدر في صمت طول الطريق.

لاحظت أنها تشبه أمها تماما، نفس الصوت والوجه ونتوءات الجسم، لكن القوام أكثر رشاقة، وإيماءات يديها أكثر رقة. نفس الفتنة المتقلّبة التي ألفتُها طويلا، لكنها هذه المرة بإيقاع هادئ حزين. لولا أنني رأيت جثة نازك، لظننت أنها هي بعد أن أجرت عملية تجميل.

***

كنت أظن أن الأمر سيتم بسرعة، وأننا سندفنها صباح اليوم التالي علي أبعد تقدير، لكنها ظلت في ثلاجة المشرحة ليلتين.

لجأت إلي فايز في اليوم الثالث لحل الأمور الروتينية المعلقة

مع النيابة والسلطات الصحية. كان يسعد كثيرا باستعراض علاقاته ونفــوذه، وكــنت مــن جانبي حريصا علي عدم الزج باسمي في المسائل الشائكة.

تجمعت قلة من النساء في انتظار نتيجة مساعينا بين المشرحة وســراي النيابة. كان العدد قليلا؛ ابنتها وثلاث عجائز. واضح أن أغلــب الجارات فضلن الابتعاد عن مسرح الأحداث، كان الاشتباه الجنائي أمرا مقلقا للجميع.

أنهي تقرير الطبيب الشرعي حالة الانتظار؛ واستند إلي تقرير المعمل الجنائي في أن الوفاة حدثت نتيجة جرعة زائدة من الحشيش عن طريق التدخين، أدت إلي هبوط حاد في الدورة الدموية.

ناولنـــي فايــز تصريح الدفن، وأخبرني أن الإجراءات انتهت تقريبا، ولم يتبق إلا تحقيق روتيني في القسم لإغلاق ملف القضية، وقال لي:

ــ سامحني؛ لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة أبعد من ذلك، فعلت كل ما أقدر عليه، ولا أحتمل طقوس الدفن.

أنــا أيــضا انــصرفت، ناولــت التصريح لابنتها في العربة السوداء وانصرفت. دائما أتجنب الذهاب إلي مقابر الصدقة.

لا أخفي أنني أحسست بالأسي لفقد نازك، وأن رحيلها المفاجئ بعد موت وداد ومرض الحاج حسين كان مصدرا لتأملات مؤرقة.

ألاحــظ أن أفكاري تتغير كثيرا، وربما كان ذلك بتأثير العمر. مرّت السنون بسرعة؛ أغمضت عينيّ وفتحتهما فوجدتني تجاوزت الخمسين.

هل كنت أحبها بشكل ما؟..ربما، لكن حبي لها كان علي الدوام مظلّلا بكل ألوان النسيان. أجلس صامتا علي المقهي، أتسمّع بصمةَ صــوتها كما يتشمم الكلب بصمة الرائحة. أصغي لأذني مثل مذياع قــديم تــتداخل فــيه الأصــوات، وأدير مؤشرات ذاكرتي في كل الاتجاهات باحثا عن نداء يخصني. أتوهم الصوت أحيانا في أخلاط المحطات البعيدة، ثم يتبدد في تشابكات ضوضاء المقهي والشارع:

ــ يا وعْدي.. يا وعدي.

أتأمــل أحيانا بصمة إصبعها علي ورقة الإيصال الذي مازلت أحــتفظ بــه، وأغــوص فــي دواماتها الحلزونية. يأتيني صوتها المــستحيل مــن عمق الدوامة كأنه يأتي من عمق الانفجار الأول،

النبض الأول:

ــ ياوعدي..

كانــت دائما تعتبرني وعدها، فهل خذلتها؟.. هل كنت أستطيع أن أتقــبل الاســم الــذي خــصتني به، وأن أثق بامرأة بمثل ذلك الابتذال؛ امرأة تقول إنها تربّت علي ألا تمنع نفسها عن الرجال؟.. أظن أنني تصرّفت دائما كما ينبغي.

***

أحــاول أن أتمسك بنفسي مرّة أخري، أن أتذوّق طعما جديدا يشغلني عن أفكاري.

***

كانت نور مذاقا مدهشا. أشم في صباها رائحة شبابي، أستعيد ذلك الوهج الأول، القلق الأول.

هي نازك نفسها بملامحها ورائحة شهوتها الفوّاحة، لكنها نازك جديدة، بكر لم تلوثها الحياة بعد، وأستطيع أن أطمئن إليها. عليّ أن أغامر بهذا التوهم، وأظن أن ذلك لا ينطوي علي أنانية وإنما علي قدر من التنازل، وربما المغامرة.

مــددْتُ لهــا يــدي. زرتها في البيت لأعزّيها، أعطيتها أرقام تليفوناتي، وعرضت عليها المساعدة:

ــ لا تترددي، يمكنك أن تطلبي أي شئ، وفي أي وقت.

ـ لم تحدثني أمي عنك أبدا.

ـ كنا جيرانا فترة الطفولة، واستمر الود القديم حتي آخر يوم.

ـ وهل كنت تعرف أبي؟

ـ لا أتذكر أنني عرفته أو رأيته، كنت وقتها مشغولا بأعمالي، وأظن أنه مات سريعا.

كانت فخورة بسيارتي التي تسد مدخل الحارة، تدلّت من الشباك أكثر من مرّة، لتبعد الأطفال الذين يركبون مؤخرتها.

***

اتصلت بي لتشكرني، ودعوتها للعشاء في أحد مطاعم الخان. كانت لاتزال في سواد الحداد. اشتريت لها بعض الأغراض المنزلية، وأوصلتها إلي مسكنها. قبّلتْ خدي في عتمة السلم، وشممتُ في أنفاسها نفس الرائحة القديمة؛ الرائحة التي تتبدد الآن في عتمة القبر.

أظن أنها ورثت الكثير عن أمها. لاحظت ذلك في نظراتها ولمساتها وهزات جسمها.

لم يكن لدي مبرر يمنعني عن أي شئ، هي كانت سعيدة بصحبتي، وأنا كنت سعيدا بها؛ نازك الجديدة.

***

طلبت موزة مني أن أجهّز السيارة لنمضي يومين في الغردقة

بعيدا عن المناقشات وضجة الصحافة والفضائيات:

ـــ لم أعد أتحمل مشاهد الموت والدمار في الفضائيات، ولا أريد أن يداهمني التليفزيون بمشهد سقوط بغداد، أريد أن أبتعد.

صـــحبنا فايـــز في الرحلة، كان متحفظا في آرائه، لكنه كان يتحدث عن احتمال أن يكون ما يحدث بداية تغيير شامل:

ـ .. منطقة جديدة، ومصر جديدة.

أنا كنت مشغولا طول الرحلة بنازك الجديدة؛ نور.

لـــم اتـــصل بنور خلال رحلة اليومين، وعندما عدت أخبرتها أننـــي كـــنت مـــتوعكا قليلا، ومازلت راقدا بالبيت. أصرّت علي زيارتي فحدّدتُ لها المكان:

ــ الباب الثاني علي يمين الدرب.

وهي حددت الموعد:

ــ بعد ساعة بالضبط.

***

هي التي عرضت، وهي التي حددت الموعد؛ أهلا.

***

جـــاءت نـــور قـــبل أن تنتهي الساعة. أعدّتْ بعض العصائر والأطعمـــة الخفيفة، ثم بادرت بتنظيف الشقة. كان تطوعها بالخدمة يختصر مناورات كثيرة، ويعطيني وضعا أفضل.

ساعدتها بتثبيت السلم النقال تحتها وهي تنفض غبار السقوف، وتعمّـــدت أن أحرّكها في أوضاع تجعلها متاحة للنظر. تشبّ فوق الـــسلم وتـــنفُض، فتترجرج مكامن أنوثتها، وأنا أسند وأنظر وألفح

ساقيها بأنفاسي.

طلــبَتْ منـــي أن أبــتعد عن الغبار، ولمّا تمسكتُ بمساعدتها نزلت. تلقيتها في حضني:

ــ لماذا لا تكملين نفض الغبار؟

ــ مكسوفة؛ جسمي يتكشّف.

تصنعتُ البراءة:

ــ لم يتكشف شئ.

ــ لا أقصد أنه يتعرّي، وإنما يتفصّل.

حاولت أن أستبقيها في حضني لكنها أفلتت بلطف. لا أظن أنه كان صدودا، ربما كانت خجلي أو حائرة، وربما هي المرة الأولي.

ــ أحبك يانور.

ــ ماذا تريد مني؟

ــ أحبك.

ــ لكنك ثري جدا، وأنا صغيرة وفقيرة جدا، فماذا تريد مني؟

ــ وهل يمنعنا المال أو العمر عن المحبة؟

ــ لكن ما تعرضه الآن ليس هو الحب.

تراجعت قليلا:

ـــ اعتبــريه عرضا بالحب يا نور، فكري ولكن لا تضيّعي الــوقت، لــدي المــال الذي تحتاجينه، ولديك الشباب الذي أتمناه.

فكّري، وسأتصل بك لأعرف رأيك.

***

بعد يوم واحد نهشني القلق، لم أصل إلي هذه الدرجة من قبل. شـــاورْتُ فايـــز في الأمر دون ذكر تفاصيل أو أسماء. لخصت له الحكايـــة فـــي أنهـــا بـــنت فقيرة وتصغرني بثلاثين عاما تقريبا. وصارحته:

ـــ أحبها بجنون.

ـــ وماذا يمنعك عنها؟

ـــ لا تبدو راغبة في مغامرة.

ـــــ غامـــر أنـــت وتزوجها شهرا أو عاما أو أي مدة تريدها، وعندما تزهد فيها طلّقها. لديك مال يساعدك علي فعل كل ما تريد، وهي لن ترفض فلوسك أبدا، فلماذا تعذّب نفسك؟!

وشجّعني:

ـــــ سأكون شاهد زواجك، لكن بشرط أن تصحبني في زيارة لعمك. من يضمن أن يراك بعدها.

***

صحبتنا موزة في زيارة عمي.

حين دخلنا علي عمي وجدناه متيقظا وجاهزا للكلام علي غير عادتـــه، كان يدير الكرة الأرضية بهمّة ويحكي فتنفث أنفاسه غبار

المكان في وجوهنا.

***

كان عمي يحكي عن "وقفة الفجر" كأنه رأي كل شئ:

ـــ في آخر الأيام تاه جدنا حمروش، تاه حتي عن نفسه، وصار لا يعرف أهو ذكر أم أنثي. وضعفت عيناه فصار لا يعرف مَنْ حوله، وانحني ظهره، وصار متاحا لكل عابر سبيل. كان يجر نفسه جرا، وهو يقلّب بصره الكليل في الوجوه التي تمر به، ويولول علي الطرقات:

ـ يا هي.. يا هو.. يا هي..

وكل ليل يطوف حول السور في انتظار الفجر، ويسبّح:

ـ البحر واحد، والسمك ألوان.

زهق صبره، ولما زهق وقف "وقفة الفجر" التي يحكي عنها الناس.

وقف جدنا حمروش من أول الليل علي باب الصبح ينتظر. كانت ليلة صيف معتمة، لا قمر فيها ولا نجم ولا نسمة.

وقف علي رجليه يتململ، يضع قدما ويرفع الأخري وهو يدق باب الليل ويشكو حاله، عاتب وزاد في العتاب، ولما طلع الفجر أمسك بخناقه وقال له:

ـ يا فجر يا كذاب؛ يوم بعد يوم توعد، وتنساني. يا فجر هات

العمر من تاني، ووف الوعد يا كذاب ولو مرّة.

***

كانـــت موزة مبهورة بالكلام، وأقسم فايز أنه يكاد أن يكون شعرا. أنا كنت ساهما، أفكّر في اتجاه آخر يخصّني.

اتصلت بنور وطلبت أن أراها بشكل عاجل:

ــ لديّ عرض يخص مستقبلك، ولا يناسبه الحديث بالتليفون. أريد أن ألقاك في أي مكان عام تختارينه لتسمعي مني. لك أن تقبلي أو ترفضي، ولن أُلحّ عليك.

***

خمّنت حين رأيتها عن بعد أنها فهمت ما أريد، بل ووافقت أيضا؛ كانت في كامل أناقتها وزينتها. ولاحظت بعد جلوسها أنها تلبس قلادة حجر القمر التي أخذتها نازك مني. لمست العقد بأطراف أصابعي، وسألتها:

ــ من أين أتيت به؟

ـــ قدّمته أمي لي يوم تخرجي، وقالت إنه كان هديتها الوحيدة من أبي. سافر إلي آخر الدنيا ليعمل ويشتريه من أجلها، وحين مات حفظَتْه في علبة مبطنة بقطيفة حمراء، وأخفته عني إلي يوم تخرجي.

ــ ألم تحدثك عني؟

ـــ لم تحدثني أبدا عن رجل غير أبي.

ـــ هل كانت تحبه؟

ـــ بل تعبده، لكنها كانت تقول إنه ظلم نفسه.

ـــ كيف؟

ـــ كانت تقول إنه لم يقنع بما كتب له ربه، فضيّع عمره طمعا في أشياء لا تفيده. كانت تطلب له الرحمة دائما، وأحيانا تطلب من ربـــه أن ينير طريقه. أسألها: "أي طريق وهو ميت يا أمي؟" فتقول لي: "حتى في الآخرة يا نور هناك أكثر من طريق".

ـــ وماذا كان اسمه؟

ـــ "السيد سيد".

ـــ أقصد اسمه الحقيقي.

ـــ هذا اسمه الحقيقي المكتوب في شهادة ميلادي "السيد سيد"، ليرحمه الله. لكن أمي أخبرتني أنها كانت تناديه باسم آخر.

ـــ ماهو؟

ـــ "وعدي".

قلت مرة إن لكل حلم ذكريات تواكبه، وترقد في قاعه بشكل لا مرئـــي، ذكريات لا تنفصل عنه، تفسره وتبرره وتضعه في سياق مفهوم.

قلت ذلك، ولكنني لم أنتبه إلا في هذه اللحظة لحقيقة أخري أشد وضوحاً، وهي أن لكل واقع ذكريات تواكبه، ذكرياتنا.

لا أقـــصد ذاكرة أمة ولا تاريخ شعب، ولا هذا الكلام الفارغ، وإنما أقصد ما يعنيني شخصياً، ذكرياتي أنا، حبيب الله الأفندي.

هـــنا لابـــد أن أعترف أنني رجل فقير، كسبت وامتلكت لكنني فقير؛ فقير بنفسي. نعم فقير بنفسي.

مـــاذا أملك من ذكريات؟ جدي حمروش الدّكر، الذي بدد نفسه تائهـــا في الشوارع يبحث عن وجه امرأة توهمتها أحلامه، امرأة لا وجـــود لهـــا. أم عمـــي المخبول الذي لا يصلح إلا أن يكون لقطة عابرة علي أبواب أسواق شعبية في عصور قديمة.

مـــن غيـــرهم؟.. أبي الحلاق، "سي كلام"، "سي مش عارف". بـــالمقص والمـــشط وخـــيوط النتف؟.. أم أمي سيدة الملابس الرثة

والتنهدات المكتومة؟..

أتذكر الآن أنها كانت دائما في البيت بملابس رثة.

حتـــي لقطة "ملاك هانم" الأنيقة تخبو في ذاكرتي، أفضّل الآن أن تنمحي تماماً.

"ملاك هانم"؛ هل كان الطبيب ذو العيون الخضراء يسخر منا؟

***

هل قلت الخضراء؟.. نعم الخضراء.

***

ماذا يتبقي لي من نفسي؟.. نازك، نور. أفلام تافهة، وأصداء صـــوت قـــديم كان يطارد السياح في حواري الخان وعلي مقاهي وسط البلد:

ــ كان آي هلب يو؟

شبّاكي أصبح هالة زجاجية متربة، فارغة من وجوه القديسين. حتـــي وجهـــي صـــرت أتقاداه في المرايا، أتأمل فقط ربطة العنق ولمعة الحذاء.

مـــاذا يتبقـــي لـــي غير ذلك الحلم القديم، الكابوس القديم الذي يلازمنـــي؛ رجل ذو عيون خضراء جالس علي كرسي بالمقلوب، وجسمُه يتشقّق كالفخار.

كـــان هـــذا الرجل يتمدد في داخلي باستمرار. ظل ينتفخ حتي

لامــس جلــدي، وأطلّــت نظراته من عيوني. أتذكر الآن كم كان حزينا، وأتشمم معه رائحة حريق تفوح من داخله. أتأمل نفسي في المرايا جالسا علي هذا الوضع.

رحلت موزة فجأة.

دعتـــنا إلي حفل كبير، وفاجأتنا بأنها راحلة، وأنها سعيدة لأنها لن تري وجوهنا بعد ذلك اليوم.

كان وداعها فريدا.

ضـــاقت الشقة بمعارفها الذين حشدتْهم في سهرة واحدة. كانوا أخلاطـــا من الناس؛ صحفيين وكتاب وناشرين، ومذيعين وسماسرة وبوّابـــين أيضا. حتي سائقي الموتوسيكلات الذين أحضروا طلبات الأكل من المطاعم استبقتهم كأصدقاء.

أغلقت موزة التلفزيون الذي كان يذيع لقطات عن سقوط بغداد، واســـتهلت الحفل بكلمة أبلغتنا فيها أنها فخورة بنفسها لأنها اتخذت أهم وأشجع قرار في حياتها.

انتظرنا الجملة الحاسمة بصمت، وهي نطقتها ببطء:

ــ لن أري وجوهكم بعد اليوم.

صفق فايز بحماس، وداعبها ضاحكا:

ــ هذا خير لنا.

ـــ أنا أتكلم بجدّ. صدقوني؛ مللتكم وقررت ألا أعود إليكم أبدا، وأن أشـــطبكم من ذاكرتي تماما. لا يعنيني إلي أين أذهب، لكنني ســـعيدة لأننـــي لن أري وجوهكم مرة أخري. احتميت بكم، لكنكم غير قادرين حتي علي حماية أنفسكم.

قاد فايز ناصف حملة تصفيق حماسية وحيّاها:

ـــ هذه أهم قصيدة في حياتك، وقد تكون الأولي علي الإطلاق.

دارت الموسيقي بإيقاع خليجي، ودار فايز بموزة راقصا. دار دورتين ونهج وانقطعت أنفاسه، فأسلمها إلي وانسحب وهو يطرقع أصابعه ويهز وسطه.

كانـــت موزة ترقص وسطنا، ونحن نجدف بأيادينا حولها مثل عبـــيد الغوص، ونردد خلفها أغاني "النهّام" العجوز في ليالي البحر الطويلة:

ـــ خوفي عليهم يا نوخذه.. خوفي عليهم

عينهم علي "القرش" في البر

و"القرش" في البحر عينه عليهم

خوفي عليهم.

محمد ناجى

روائى وصحافى مصرى يعمل مديرا للتحرير المركزى بصحيفة "العالم اليوم" بالقاهرة. عمل فى وكالتى أنباء "الشرق الأوسط" و"رويتر"، وصحيفتى "الإتحاد" الإماراتية و"الأيام" البحرينية.

صدر له:

خافية قمر ترجمت للأسبانية.

دار الهلال ــ مصر ١٩٩٤

لحن الصباح ترجمت للأسبانية والفرنسية.

الطبعة الأولي ــ دار مصر العربية ــ مصر ١٩٩٤

الطبعة الثانية ــ مكتبة الأسرة ــ مصر ٢٠٠٥

مقامات عربية

الطبعة الأولي ــ دار الهلال ــ مصر ١٩٩٩

الطبعة الثانية ــ دار نارة ــ الأردن ٢٠٠٦

العايقة بنت الزين

الطبعة الأولي ــ دار الهلال ــ مصر ٢٠٠١

الطبعة الثانية ــ مكتبة الأسرة ــ مصر ٢٠٠٦

رجل أبله.. امرأة تافهة ترجمت للأسبانية.

الطبعة الأولي ــ دار الهلال ــ مصر ٢٠٠٢.

الطبعة الثانية ــ دار نارة ــ الأردن ٢٠٠٦.

هذه الرواية

لنتفق على أن نسميه "الأفندى" ، هو نفسه غير متأكد من أى اسم آخر، ثم أن "الأفندى" يصلح لقبا لكثير من الناس؛ أنا أو أنت مثلا.

أظن أن الاسم لا يهم، بل واسمحوا لى أن أقول إن ما يحكيه عن نفسه غير مهم أيضا، ما الجديد، كل شئ عادى، نراه بل ونفعله؛ أنا أو أنت.

حتى كلامه لا أرى له أهمية، يجهد نفسه فى فلسفة أمور واضحة، بل يزيدها التباسا، عموما كلنا نفعل ذلك؛ أنا وأنت.

لماذا طاوعته وكتبت؟

لماذا أدعوك للقراءة؟

الحقيقة ليست عندى أسباب مقنعة؛ أنت حر.

mohammednagy@hotmail.com
٠٠٢٠١٢٣٢٨٦١٣٣